إلى القارئ

تدخل مجلة « الفكر » بهذا العدد سنتها الثالثة عشرة وتستانف نشاطها بعد عطلتها السنوية بنفس العزيمة التى عرفها قراؤها الكثيرون ، فى تونس وخارجها ، وبنفس الايمان الذى لم يزل يغمر أسرتها الوفية ، وعلى أساس نفس المبادىء والمثل العليا التى ما فتئت تهدى القائمين عليها والمنتسبين لها.

واذا حق « للفكر » ان تفتخر وتعتز بما قدمته للثقافة التونسية المعاصرة من خدمات نترك للتاريخ تقريرها وتقييمها ، وبما حافظت عليه من انتظام فى البروز ودوام فى السير وتحسن فى المستوى ، فان من أهم أسرار هذا التوفيق نبذ التعصب لمدرسة ما أو أسلوب معين أو جيل من الاجيال والنظر الى الأثر الادبى من حيث هو ، بقطع النظر عن هوية كاتبه أو سنه أو آرائه الأدبية والتفتح دائما الى انتاج الشباب ومحاولاتهم وتحسس الملكة الفنية والاستعداد الباكر .

لذا سوف نواصل هذه الطريقة التى تمليها سنة الحياة ويفرضها تطور الاشياء ، ونؤكد مرة أخرى للأدباء الشبان أننا نرحب بباكورة انتاجهم ونمد لهم يد المساعدة حتى نيسر لذوى الكفاءة منهم أسباب الرقى والتبريز فى دنيا الفكر .

على ان التشجيع لا يعنى التساهل ، والعطف اذا أدى الى التواطؤ والتملق انقلب شرا . لذلك سنتوخى كالعادة الصراحة ونرشد بما نراه خيرا وفائدة ونوجه الى ما نعتبره مدخلا الى الأدب من بابه الكبير .

ثم هل نحن فى حاجة الى تذكير الأدباء ، كل الأدباء التونسيين ، بأن هذه المجلة مجلتهم ، وأنها ليست حكرا لفئة من الأدباء أو وقفا على زمرة من الأصدقاء ، وأنها غير متحازة انحيازا أعمى الى مدرسة أو أسلوب ، معيارها فى تبنى الأثر الأدبى أن يكون فى مستوى مرضى وان يتسم بالأصالة ويروم الصدق .

إذ الأدب صدق فى التجربة وطرافة فى الرؤيا وأصالة فى التعبير وإخلاص فى المقصد .

و « الفكر » ستواصل ، بحول الله وعزيمة أدباء هذه البلاد ، جهودها وجهادها فى خدمة الأدب الحق .

الفكر

في الذكرى العاشرة

لعيد الجمهورية التونسية

شعر : أحمد المختار الوزير

تحية زكية مرفوعة الى سيادة الرئيس الجليل فخامة الحبيب بورقيبة

يَبْلَى الزمانُ ، وليس يبْلَى مَا أسَسْتَ من القواعِدْ
ومنَ الصروح العَاليَاتِ . الشّامخَاتِ على الخَوَالِدْ
تَعْلُو ، مُسردة ، تشع ، كأنّها الزهْر الفراقِدْ
خَبِلَ النسورُ ، وحُجِّبَتْ ، من دونها ، قِمم المراصدْ
زَاغت نواظرُها النّوافذُ ، فهي من عَمَهٍ شَرَائِدْ
لا للمصادر مَذْهَب ، يبدُو لها ، أو للمَوَارِدْ
ضَاقَ الفضاءُ عنِ الجنَاح بمَا تُشيِّدُه السوَاعِدْ

هِمَمٌ بَدا ، من فوق أقمار السماء لها مَقَاصِدْ
فَهَمَتْ ، كأسْرَابِ الحمائم شاقَهَا سبْلُ الحصائدْ
تَبْنِي ، وَأنتَ تَرودُهَا ، فَذ البدائِع ، والفرائِدْ
تَبْنِي ، على الاسُسِ المتان ، من العدالة والمرَاشِدْ
لو كان للماضي تَلَفُّتُ عَابِرٍ ، بَيْنَ المَشَاهِدْ
لَتَلَبَّثَتْ خُطُواتُه ، وثَنَى العِنَان ، فما يباعِدْ
وَلَود لو يَلْقَى الطريفَ ، وَنَاءَ عن عينيه تَالِدْ

عَشْر منَ السَّنَوَاتِ . تَزْهُو كالنظيم من الخرائدْ
تَاهَتْ بها ، الذكرى ليوم مُشرقٍ ، صَدَقَ المَوَاعِدْ
يوم تَحَايَا الشعب ، في صَحَوَاتِه ، عَاشَ المجاهِدْ
عَاشَ الحبيبُ مُظفّرا ، نُورا لرائِدةٍ ، وَرَائِدْ

أحمد المختار الوزير
67/7/25

شهامة النساء القيروانيات

بقلم : حسن حسنى عبد الوهاب

كان فتح الشمال الافريقى من أشق الفتوحات التى تولاها العرب وأشدها عنفا ، وأطولها أمدا ، وقد لاقى غزاتهم ــ فى سائر القرن الثانى ــ مقاومة لم يعهدوها فى جميع ما امتلكوا من بلاد المشرق إذ ان مقابلة حربية كبيرة واحدة هناك كانت تكفيهم مشقة تعدد المقابلات ، مثل وقعة (اليرموك) على ضفاف الأردن ؛ و (القادسية) التابعة لفارس ، خلافا لما حصل لهم بالمغرب ، فانهم هنا لم يواجهوا دولة منظمة ، لها سيادة مستقرة وجند رسمى متى انكسر واختلت صفوفه لم تعد تحاول إعادة المعركة ، بل تعمد الى الصلح والرضا بدفع الجزية ، والخضوع للانخراط فى بودقة الغالب بتعلم لغته ، والاعتراف بديانته ، والتشبه باوضاعه وتقاليده ٠

أما فى افريقية التونسية ــ كما فى بقية الاقطار المغربية ــ لم يقاتل العرب دولة متحدة تمثل الشعوب التى تقطن البلاد ، بل وجدوا أمامهم أقواما متفرقين أصحاب شوكة قوية وعصبية قبلية صعبة المراس ، فاذا ما انهزمت منهم فرقة سرعان ما تحل مكانها فرقة أخرى تنتصب لكفاح جنود الفاتحين ، وهكذا دواليك ٠

قصد الجيش العربى افريقية التونسية لاول مرة تحت قيادة الصحابى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ــ سنة 27 هـ (648 م) ــ وأوقع بالقوات المتجمعة من بيزنطيين وبربر قريبا من مدينة سبيطلة ، ولقى البطريق جرجير الرومى (ڤريقور) حتفه فى المعركة ــ كما هو معروف ، وكانت هذه الوقعة بمثابة حركة استطلاع وكشف لقوات العدو ومعداته ٠

ومن ذلك الحين الى منتصف القرن الثانى للهجرة تتابعت الامدادات العربية على الشمال الافريقى بلا انقطاع ، وقابلت المرات ــ بل المئات ــ العديدة عصابات المقاومة لها ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، لكن فى نهاية الامر كان النصر للعرب ٠

ومن سياسة البربر حينئذ الاتحاد مع بقايا الروم البيزنطيين وادماجهم في صفوفهم للاستفادة من تجاربهم ومن خبرة رؤسائهم بأساليب المقاومة وطريق الدفاع بينما كانوا قبل ذلك من أشد العداء للروم ٠

يضاف الى ذلك عامل آخر كان من أكبر الاسباب لتوحيد كلمة البربر الاهلين ، وقد أنساهم منازعاتهم الداخلية القديمة العهد ، وخلافاتهم العنصرية المتمكنة من نفوسهم ، وذلك انهم تحالفوا على اعتناق (الخارجية) التي ظهرت بالمشرق ، وقد تدرجت في زمان قصير الى أصقاع المغرب بواسطة بعض المحاربين من العرب اوائل القرن الثاني للهجرة ، فسارع البربر الى التمسك بهذه النحلة الجديدة بعدما اعلنوا إسلاما ظاهريا ، مخفين ما تكنه صدورهم من العداوة للعرب وتربص الفرص للايقاع بهم ، فانتحلوا أشد مذاهب الخارجية تعصبا ، وهو مذهب طائفة (الصفرية) التي تبيح اتباعها سفك دماء من لا يؤمن بقولهم ، واستحلال سبيء نساء اعدائهم واسترقاقهم وبيعهن كعبيد السودان في الاسواق ٠

واندفعت عشائر البربر — من المحيط الاطلنطي الى آخر طرابلس — لاتخاذ (الصفرية) نحلة رسمية ومعتقدا قوميا (I) ٠

وعلى هذا المبدأ الخارجي تألفت عصاباتهم واجتمعت لمهاجمة السلطة العربية من داخل حظيرتها ، مدعين الاخلاص للاسلام ، مسرين في باطنهم التمرد والعصيان ، فكان كلما ظهر شيء من الضعف على سلطان الولاة بافريقية انكشفت مقاصدهم الباطنية ، وبانت مطامعهم لطرد العرب ونبذ الاسلام ٠

تواثبت العصابات المتشبثة بالصفرية على امتلاك القيروان — عاصمة العرب الكبرى — وابتزازها من يد الولاة ، واشتدت هذه الظاهرة في أواخر الدولة الأموية بالمشرق ، واجتهد خلفاء بني أمية لارسال قوات كبيرة الى افريقية على بعد الدار ، وعينوا على رأسها أمهر القواد لديهم ، مثل عبيد الله بن الحبحاب ، وكلثوم بن عياض ، وبشر بن صفوان الكلبي ، وأخيه حنظلة بن صفوان ، وكانوا جميعا قبل ذلك ولاة لمصر ، فاظهروا إخلاصا تاما للدفاع عن الاسلام ، وبذلوا جهدهم — بل أنفسهم — لاعلاء كلمة الله ٠

(I) مؤسس هذه النحلة هو (زياد بن الاصفر السعدي) ولذا تسمى أيضا هذه الفرقة من الخوارج (بالزيادية) نسبة الى واضعها الاول (راجع ك « الملل والنحل » للشهرستاني ، ط ليبزيغ 1923 ص IO2) ولو ان ابن الاثير في « الكامل » ينسبها الى : (محمد بن الصفار السعدي) ٠

نقل الاخباريون عن الشيخ عبد الله أبي زيد انه قال : « كان بين العرب والبربر من لدن الفتح الى أيـام عمـرو بن حفص المهلبـي ، ثلاثمائة وخمس وسبعون وقيعة » ـ وكان مقتل عمرو بن حفص فى آخر سنة 154 (771 م ·) ـ أى فى مدة لا تتجاوز المائة عام من تأسيس القيروان ·

ومن أروع ما وقفت عليه فى وصف ملحمة من الملاحم التى دارت بين غزاة العرب الاولين وبين الفرق المتجمهرة تحت لواء الصفرية ـ فى سنة 124 هـ · (742 م ·) ـ هو ما أورده شيخ مؤرخى افريقية وأعنى به : الكاتب الـرقيق فى تاريخه (1) ·

وخبر هذه الوقعة بالصورة الآتية لم ينص عليه مـؤرخ قبل الـرقيق ولا بعده فيما علمت (2) ، وعلى كل فان هذه الملحمة كانت من المـواقف الحـاسمة التى أركست الخوارج الصفرية ، وأخضدت شـوكتهم ، وأذلت عصـاباتهم ردحا من الزمن ·

وظاهر ان (ابراهيم الرقيق) نقل خبر المشادة الثانية من الرواية عمن أسماه (ابن أبى حسان عن أبيه) ، ويقصـد به : عبد الله بن أبى حسـان عبد الرحمن بن يزيد اليحصبى (3) ، وهو من أشراف عرب افريقية بشرف أبيه وبيته وفقهه وأدبه ، وكان يسكن القيروان فى (حارة يحضب) المنسوبة اليهم ؛ قال مؤرخ افريقية القديم ابو على بن الوكيل عند التعريف به : « كان

---

(1) ابراهيم الكاتب الرقيق توفى فى حدود 425 هـ · ومن مؤلفاته العديدة : « تاريخ افريقية والمغرب » ، ولا يعرف منه الآن الا قطعة محفوظة فى المكتبة العامة بالرباط ، وقد تفضل السيد محمد بنونة الاستاذ بجامعة العلوم فى المغرب بالسماح لأحد الاصدقاء بتصويرها ، وفيما علمنـا أنه عـازم على نشر تلك القطعة والتعليق عليها ، فله الشكر الجزيل على مساعدته بتصويرها ·

(2) نقل ابن عذارى فى كتابه « البيان المغرب » معظم ما أورده الـرقيق فى تاريخه الا انه يغفل ـ او يتغافل ـ أحيانا عن إيراد بعض الاحداث التى تستحق الذكر لأهميتها الكبرى كالتى سنوردها بعد ـ راجع البيان ج 1 : 45 ط ليدن ·

(3) ولد عبد الله بن أبى حسـان سنـة 140 (757 م ·) وتوفى سنة 226 (840) ـ راجع ترجمته بالمـدارك لعيـاض ج 1 مخطـوط ، ومعـالم الايمان 2 : 37 ·

ابن أبى حسان عالما بايام العرب وأنسابها ، راوية للشعر ، قائلا له ، وعنه أخذ الناس أخبار افريقية وحروبها ، روى ذلك عن أبيه » ـ وأبوه : أبو حسان عبد الرحمن ، كان من الجنود المشهورين بالبسالة والنجدة ، ممن أخذ نصيبا وافرا فى حروب الصفرية بجنب الولاة الأمويين ، وابتلى فيها البلاء الحسن ٠

وقد اثرت نشر قطعة مقتبسة من تصنيف الرقيق المومى اليه ، مع احترام ما فى الارقام الواردة من المبالغة الواضحة فى عدد الجنود المهاجمة للقيروان وفى عساكر المقاومة وكذا فى عدد القتلى ، ونقلت عبارة المؤلف على علاتها وتركت ما ليس له مساس بالموضوع ٠

وألفت النظر ـ وهو المهم ـ الى ما جاء فى هذا الفصل فى شجاعة نساء العرب القاطنين وقتئذ بالقيروان ، وما أظهرن من الحماس النادر والحمية المدهشة فى مشاركة رجالهن للدفاع عن شرف حرمتهن ، وبالتالى عن حوزة البلاد، لما لهن من عزة نفس وشمم عال،فقرون مواجهة المحنة ببطولة الشجعان٠

وقبل النقل أنبه القارىء الى ان هذه الحملة الصفرية كانت تتألف من فرقتين يقود عصابات الاولى (عكاشة بن أيوب الفزارى) وهى التى لاقاها العرب أولا تحت جبل « القرن » ـ جبل الباطن الآن ـ المطل على القيروان ، ويتقدم الثانية ـ وهى اللاحقة ـ (عبد الواحد بن يزيد الهوارى) وقد نزلت بمكان يعرف « بالاصنام » على مسافة أميال قليلة من العاصمة ٠

وها هو مؤرخنا الرقيق يشرح لنا تفاصيل المقابلتين بالتدقيق ، ناقلا عن عبد الله بن أبى حسان وغيره من أصحاب المغازى والاخباريين الافريقيين الذين لم تصلنا آثارهم ٠

قال الرقيق :

« ٠٠٠ ولما بلغ الخليفة هشام بن عبد الملك قتل كلثوم بن عياض وأصحابه ، بعث الى افريقية (حنظلة بن صفوان) وكان عامله على مصر ، ولاه عليها سنة تسع عشرة ومائة ، فاقام عليها حتى وجهه الى افريقية سنة أربع وعشرين ومائة ، فقدمها فى شهر ربيع الآخر منها ٠٠٠ ولم يمكث حنظلة بالقيروان الا يسيرا حتى زحف اليه (عكاشة الصفرى) بجمع عظيم من البربر لم ير أهل افريقية مثله ٠٠٠ وزحف أيضا الى حنظلة (عبد الواحد بن يزيد الهوارى)

فى عدد عظيم ، وكانا افترقا من الزاب ، فأخذ عكاشة على طريق « مجانة » (1) فنزل « القرن » (2) ، واخذ (عبد الواحد بن يزيد) على طريق الجبال فنزل « طنبياس » (3) وعلى مقدمته أبو عمرة المغيلي ، فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة قبل ان يجتمع عليه البربر ، فـزحف اليه بجماعة أهـل القيـروان والتقوا « بالقرن » فكان بينهم قتال شديد فنى فيه خلق كثير من النـاس ، وهزم الله عكاشة وأصحابه ، وقتل من البربر ما لا يحصى كثرة ·

« وقيل ان حنظلة لما رأى كثرة ما دهمه من البربر قال لأصحابه : « نخندق على أنفسنا [بالقيروان] ونستمد أمير المؤمنين » ـ فقال عمرو بن عثمـان القرشي ـ وهو إذ ذاك شـاب حـدث السـن : ـ « الله ، الله ! يا حنظلة ، أتستمد أمير المؤمنين والكرائم محصورات ؟ بل نخرج الى عدونا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين » ·

فعزم حنظلة وعزم الناس ، ونزل العدو ، وخرج رجـل من البـربر من أصحاب عكاشة يدعو الى البراز ، فقال حنظلة ـ « ألا أحد يبرز الى هذا ؟ ـ » فخرج اليه عمرو بن عثمان القرشي··· قال حنظلة : ـ « إمض ، يا ابن أخى » فمضى القرشي ، فلما دنا بـدره البربـرى بالضـربة [بالسيف] فاعطـاه القرشي الدرقة ، ثم ضرب ساقيه فبراهما وسقط البـربرى ، فجللـه (4) القرشي بالسيف فقتله ·

« قال حنظلة : ـ الحملة ! » فحمل الناس فهـزم الله عكـاشة ومن معه ، وكانت النساء قد ركبن ظهر البيوت بالقيروان،فاذا رأين الغبار سائرا الى الجبل

---

(1) مجانة ـ بفتح الميم وتشديد الجيم ـ بليدة أولية تقـع بالشمال الشرقى من مدينة تبسة من مقاطعة قسنطينة بالجمهورية الجزائرية ، قريبة جدا من الحد الغربى للجمهورية التونسية ، وكانت تعـرف قـديما « بمجانة المعادن » لوجودها فى وسط ارض مشهورة بكثـرة معـادنها ـ راجـع البكرى ص 145 ·

(2) تقدم ان جبل القـرن « القـرن » المطل على القيروان ، هو المعروف الآن باسم « جبل الباطن » ·

(3) لم نهتد الى معرفة مكان « طنبياس » أو « طبنياس » ويقرب الى الظن انه كان يقع قريبا من مدينة تونس من الناحية الغربية ·

(4) قوله : جلله ، أى قطع رأسه عن جسده ، والجلل هو قصب الزرع وسوقه إذا حصد عنه السنبل ·

[القرن] كبرن وسجدن ، وإذا رأينه مقبلا صرخن واستغثن » فبعث حنظلة البشير بهزيمة البربر ، وانصرف راجعا الى القيروان خوفا أن يخالفه عبد الواحد اليها ٠

قال (1) : ـ « ووافى عبد الواحد ـ بعد عكاشة ـ فنزل « الاصنام » عن ثلاثة أميال من القيروان ، وكان في ثلاثمائة الف ٠٠٠ فأخرج حنظلة كلما كان في الخزائن من السلاح ، وأحضر الاموال ، ونادى في الناس ، فأول من دخل عليه رجل من تجيب من أهل قلعة مجانة ، فقال له حنظلة : « ما اسمك ؟ » فقال « نصر بن ينعم » فتبسم حنظلة كالمكذب له ، ثم قال له : ـ « بالله أصدق ! » قال : « والله مالي غير ما ذكرت لك » فدعا عريفه (2) فقال : « ما اسم هذا ؟ » ـ قال : ـ « نصر بن ينعم » فكبر حنظلة عند ذلك وتفاءل به ٠٠٠ وأمر بدرع فصبت عليه ، وأمر بواحد بعد واحد يصب عليه الدرع ويعطيه خمسين دينارا ، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر الناس عليه فرد العطاء الى أربعين ثم الى ثلاثين ، ولم يكن يقدم الا شابا قويا ٠

قال : « فعبأنا حنظلة الليل أجمع ، والشمع حوله وبين يديه ، فلم يصبح حتى عبى خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل (3) ٠ وجعل حنظلة على الطلائع (شعيب بن عثمان) وعلى الساقة (عمر بن حاتم) وعلى الميمنة (عبد الرحمن بن مالك الشيباني) فلما دنوا من البربر وهم متوارون بالقرب وإذا (بمنصور الاعور) وكان من أكبر فرسانهم على « الكدية الحمراء » وهو على فرس أشهب ، فأشار الى أصحابه ثم انحدر الينا غير مكترث بنا ولا مبال بشيء حتى إذا كان غير بعيد منا أتبعه أصحابه وزحفنا اليه ٠٠٠ وإذا بفارس يركض من عند حنظلة : أن قفوا ، فوقفنا وإذا بقصاص وقراء من أهل العلم

---

(1) يشير الرقيق هنا « بقال » الى الرواية المنقولة عن ابن أبي حسان عن أبيه ، كما مر بيانه ٠

(2) قوله : عريفه ، يقصد به القائد العسكري الذي يحكم فرقة الجندي المقصود ؛ « فالعريف » في الاصطلاح القديم هو الناظر الذي يأمر كوكبة من الجيش بمثابة ما نسميه اليوم « الملازم » ٠

(3) يقصد « بالدارع » المقاتل المكتسي بالدرع : وهو قميص يتركب من حلقات صغيرة من الحديد متشابكة ، تقيه من وقع السلاح على جسده ـ والنابل : هو الرامي بالنبل وهم السهم ٠

والدين والفقه قد أرسلهم الينا ، فتفرقوا فينا ، وحرضوا على الجهاد ، وذكروا فضله ، وذكروا مذهب عدونا الخوارج ، وعظيم ما يريدونه بنا من السبيء وهتك الحريم وسفك الدم ، وانه ليس ملجأ بعد هذا المقام ؛ ومشى حنظلة على الصفوف ، وأقبل القراء يحرضون الناس ويرغبونهم في الجهاد ٠

« خرج نساء القيروان فعقدن الالوية ، وأخذن معهن السلاح ، وعزمن على القتال ، واستبسلن للموت مع الرجال ، وحلفن لأزواجهن : ــ « لئن انهزم أحد منكم الينا موليا عن العدو لنقتلنه ! » ــ وقد علمن ما يريد بهن الصفرية من السبيء والعبودية ، ووطن (١) الناس على الموت ، فهش الناس للقتال ، واشتدت نصرتهم حتى استبطوا ، وراع القوم من كلامهم ما سمعوا ، ثم ان رسول الحنظلة أتى إلى القراء فقال : ــ « تنحوا عن القوم وخلوا بينهم وبين عدوهم على اسم الله وعونه ! » فنهضوا نهضة رجل واحد ، وتقدم (شعيب بن عثمان) فسل سيفه وكسر جفنه ، وفعلنا مثل ما فعل ٠

قال : « فلقد رأيت الجفون (2) قد تطايرت على رؤوسنا حتى صارت كالطير لكثرتها ، فذكر ابن أبي حسان (3) عن أبيه عن رجل من الصفرية قال : « شهدت ذلك اليوم ، فلما رأينا الجفون على رؤوسهم أنكرنا ذلك ، فقال أحد أصحابنا : ــ « هؤلاء بنو اسماعيل قد كسروا أغماد سيوفهم ، فانظروا الى الرجال كيف يكونون » ــ فجعل عبد الواحد يحرض أصحابه وينادي : « يا أهل البصائر ! » (4) ٠

قال : « فأول من خرج الينا رجل كالبعير عظما يدعو الى البراز ، فخرج اليه شعيب بن عثمان ، فبدره البربري بالضربة ، فقعد شعيب على مقعدته ثم وثب اليه فقتله واحتز رأسه ، والتحم القتال ، وتنازل الاقران ، وتداعى الابطال ، ولزم الرجالة الارض ، وجثوا على الركب ، فلا تسمع إلا وقع الحديد على الحديد ، وتواخدوا بالايدي ، فكانت كسرة على ميسرة العرب حتى جازوا

---

(١) وطن نفسه على الشيء أي مهدها له ، ورضاها به ، وحملها عليه ٠
(2) الجفون هنا : جمع جفن وهو غمد السيف ٠
(3) أنظر ما قلنا عن ابن أبي حسان فيما سبق ٠
(4) قوله : « يا أهل البصائر ! » يظهر انه نداء كان يصرخ به رؤساء الخوارج الصفرية لجماعاتهم عند التحام المعارك تحريضا لهم على النزال ٠

« قصر الماء » (١) ، وانكسرت ميسرة البربر وقلبهم ، ثم كرت ميسرة العرب على ميمنة البربر فكانت الهزيمة ، وفتح الله عز وجل لنا فقتلناهم الى « جلولا » (2) ٠

« وخرجت لنا الصبيان والنساء بالماء والسويق (3) ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ، فأقمنا الى يوم الخميس ونحن لا نعلم بموت عبد الواحد عدو الله حتى أتى الى حنظلة بخبره ، فخر لله ساجدا ٠

« وقيل ما علم فى الارض مقتلة كانت أعظم منها ، وأخذ عكاشة أسيرا بجبل آخر بمضيق ، وأتى به الى حنظلة فقتله ٠

« وأراد حنظلة أن يحصى من قتل من بين الصفرية وأمر بعدهم ، فما قدر على ذلك ، فأمر بقطع القصب وأمر ان تطرح قصبة على كل قتيل ، ثم جمعت قطع القصب وعدت ، فكانت القتلى مائة ألف وثمانين ألفا ٠

« وكتب حنظلة بذلك الى هشام بن عبد الملك [الخليفة] ٠ وكان (الليث بن سعد) (4) يقول : ـ « ما غزوة كنت أحب أن أشهدها ـ بعد غزوة بدر ـ أحب الى من غزوة القرن والاصنام ! » انتهى كلام الرقيق ٠

* * *

---

(١) قصر الماء ـ قصر كان ابتناه فيما اعتقد ـ موسى بن نصير مدة ولايته ، وبه نزل عند رجوعه من الاندلس ـ وهو كائن بجنوب القيروان على مسافة قريبة منها ، وما زال مكانه معروفا بهذا الاسم ٠

(2) جلولا ـ من المدائن القديمة الكبيرة التى كانت بوسط البلاد التونسية ، بمقربة من جبل (وسلات) تبعد بنحو ثلاثين كيلومتر عن القيروان ، وكان فتحها على يد عبد الملك بن مروان فى ولاية معاوية بن حديج لافريقية ، وبها جرح الصحابى الكبير (أبو زمعة البلوى) ونقل الى القيروان وبها توفى ودفن ـ سنة 34 أو سنة 40 هـ ـ ولم تزل آثار جلولا ماثلة فوق الارض ٠ (راجع : ابن عبد الحكم ط ليدن ١920 ص ١93 ـ وطبقات أبى العرب ص ١7 ـ ومسالك البكرى ـ ومعجم البلدان لياقوت ٠

(3) السويق ـ نوع من المشروب يتخذ من دقيق القمح والشعير وسمى بذلك لانسياقه فى الحلق ٠

(4) الليث بن سعد الفهمى ـ من كبار أيمة الحديث والفقه والاخبار فى عصره ـ ولد سنة 94 هـ ٠ وتوفى سنة ١75 ـ وكان يعيش بمصر وبها ولد ومات ، واشتهر بجوده وكرمه ـ وعنه يروى جل أخبار فتوح افريقية والمغرب (راجع : وفيات الاعيان ج ١ : 438 ـ وتهذيب التهذيب 8 : 399 وغير ذلك) ٠

لا جرم أن كل من اعتنى بتاريخ الاسلام يعلم المعارك العديدة التى كان لنساء العرب فيها مواقف مشرفة لا بتحريض الرجال على الثبات فى حر المعامع فحسب ، وبتمريض الجرحاء ومعالجتهم ، وبتموين المقاتلين بالماء والقوت ، من عصر الجاهلية الى فجر الاسلام ، وكذلك بمشاركتهن الفعلية فى الحرب ومصادمة أبطال الرجال ، وأخذهن بالنصيب الوافر الفاخر فى الكفاح.

اما فى احداث افريقية التونسية فلم نقف على خبر مساهمة « العربيات » فى القتال الا فى هذه الوقعة التى كان لها من الصدى البعيد فى المغرب والمشرق ما مر بك ذكره واستعداد جداتنا « القيروانيات » للمعارك مع رجالهن يدعو الى التقدير الكبير والاعجاب . ولذا وددت أن أجلب ما نقله « الرقيق » فى تاريخه ليكون موعظة وعبرة ومثالا تقتدى به امرأتنا التونسية الناهضة ، إذا وجب الامر .

نبنـى كمـا كـانت أوائلنـا تبنى ، ونفعل فوق ما فعلوا !

حسن حسنى عبد الوهاب

عن سلام بو - يونية 1967

صدى أغنية قديمة

شعر : عبد العزيز قاسم

— 1 —

لَيَالِينَا سَهِرْنَاهَا
زَرَعْنَاهَا حِكَايَاتٍ وَأَلْحَانَا
وَأَغْفَيْنَا وَظَلَّ القَلْبُ سَهْرَانَا
فَلَيْتَ الحُبَّ مَا كَانَا

دَوَالِينَا عَصَرْنَاهَا
مَزَجْنَاهَا رَيَاحِينَا وَأَلْوَانَا
وَرَوَيْنَا غَلِيلاً ظَلَّ ظَمْآنَا
كَأَنَّ الحُبَّ مَا كَانَا

ثَنَايَانَا عَبَرْنَاهَا
رَكِبْنَا السُّحْبَ وَالأَوْهَامَ فُرْسَانَا
وَوَلَّيْنَا كِلاَنَا مُتْعَبٌ مُضْنَى
فَلَيْتَ الرَّكْبَ يَنْسَانَا

حَنَايَانَا سَبَرْنَاهَا
وَأَطْبَقْنَا عَلَى المَجْهُولِ أَجْفَانَا
وَأَخْفَيْنَا بَقَايَا حُلْمِنَا الأَسْنَى
فَهَلْ نَسْتَطِيعُ نِسْيَانَا

عبد العزيز قاسم

الاصالة في الادب

بقلم : محمد العربي عبد الرزاق

انه لشرف عظيم بالنسبة إلى أن ادعى إلى التحدث فى هذه المناسبة السعيدة الحافلة بجليل العبر لاقدم بين يدى هذا الملتقى (*) شيئا من الارتسامات وبعضا من الخواطر حول موضوع الادب والاصالة الادبية رجاء ان تكون منطلقا لنقاش مفيد ولتبادل فى الآراء بين كل المشاركين فى هذه الندوة من مثقفين وأدباء ومن شباب حريص على شؤون الادب والفكر ·

وانى اريد ان أؤكد أنه من دواعى الاعتزاز والفخر ان تبدى الدولة وان يبدى رئيس الدولة كل هذا العطف نحو الادب ورجاله ، ونحو هواة الادب الذين هم عدة المستقبل فى ميدان الفكر والخلق الادبى ·

ولكنى اود ان اؤكد ايضا ان هذه العناية السامية ليست من الامور التى يمكن ان نستغربها · فلقد اشار السيد مدير الاذاعة والتلفزة الوطنية منذ حين الى ان الدولة ما فتئت منذ قيامها تعبر عن هذا العطف المستمر وهذا التشجيع المتواصل ازاء رجال الفكر والادب ببلادنا · وقد كان الادباء والمفكرون دوما يعتبرون قائد الأمة ورئيس الدولة رائدا لهم وعنوانا للأصالة الادبية بهذه الديار · وهل يوجد شيء أقوى دلالة على هذا المعنى من اجتماعنا للحديث فى شؤون الادب فى رحاب هذا القصر المعمور باشراف المجاهد الأكبر ومشاركته الفعلية فى اشغال ملتقانا ، كما ابرز ذلك السيد مدير الاذاعة والتلفزة الوطنية ·

فى عصور غابرة من مجاهل التاريخ تخيم عليها حجب كثيفة من الغموض ظهر الانسان على هذه الارض ، ومع ظهور الانسان نشأ الفن ·

ولقد كانت أول مظاهر هذا النشاط الانسانى موجهة فيما يبدو الى تلبية بعض الحاجات الاساسية عنده ، وكانت تنحو منحى دينيا ظاهرا فى استنباطها واستعمالها · فلم يكن فيها اى مظهر من مظاهر المجانية أو اللهو واللعب ، بل كانت تتسم بالجد كل الجد · ذلك ان العامل الدينى كان يهيمن على حياة البشر البدائيين ، ولم يكن الانسان ليدرك انه يمكن ان يقوم بعمل لا يلبى به ضرورة مادية ملحة ، باستثناء نشاطه الدينى الذى كان لا يقل حيوية عنده عن الغذاء والماء ·

(*) هذا هو نص المحاضرة التى ألقاها الاستاذ محمد العربى عبد الرزاق فى ملتقى هواة الادب بالمنستير وبحضور السيد رئيس الجمهورية ·

وهكذا كانت رسوم الكهوف ونحوت القبور ورقصات الطقوس واغاني الادعية والصلوات ، كانت كلها فنونا بدائية ترمى الى نفس الغرض وهو التقرب الى الآلهة بواسطة اعمال لا تجنى منها فائدة سوى رضى هذه الآلهة •

ثم مرت العصور تلو العصور وقطعت المجتمعات البشرية اشواطا فى سبل الحضارة وتشعب الحياة • ولكن قيمة العنصر الدينى لم تقل كثيرا بل وقع بخصوصه نوع من التركيز والتنظيم فظهر السحرة والكهنة ، واصبحت المعابد والهياكل ملتقى لاصناف الفنون التى ابتدعتها حرارة ايمان البشر •

ومع تطور الشؤون السياسية وظهور الممالك الواسعة والامصار العظيمة اخذت سلطة القادة السياسيين تزاحم نفوذ رجال الدين ، فظهرت القصور الشامخة وعمرها الفنانيون بروائع مبتكراتهم من نقوش ونحوت ومن موسيقى وغناء وكلام بليغ واشعار تلقى فى المناسبات وفى غير المناسبات •

ومع تمصير المدن الكبيرة تشعبت الحياة الاقتصادية وازدهرت التجارة واقيمت الاسواق فى كل مكان وكانت تغص بمرتاديها • وفى خضم هذه الاسواق العامرة اتصل الشعب بنماذج من هذا الفن الذى لم تكن له صلة واضحة بالدين •

وكان ذلك فى صورة اشعار غنائية وملاحم بطولية يسردها الشاعر أو يغنيها • وقد كانت هذه الاشعار الرسمية أو الشعبية ، بالاضافة الى بعض الخطب التى تلقى فى مناسبات كالحروب أو الاعياد ، أول مظاهر فن الكلام الخالى من الاغراض الدينية •

ثم فكر الناس فى تشخيص بعض الاساطير والملاحم بدلا من ان يسردها الشاعر أو الراوى ، فنشأ الفن المسرحى فى صورة بدائية ثم تطور وازدهر فى عدد من المجتمعات البشرية مثل المجتمع الصينى والمجتمع اليونانى • وقد كان فى أول أمره فنا شعبيا متين الصلة بالاسواق وبطاح المدن •

ولم يصل المجتمع العربى القديم الى استنباط هذا الصنف من فنون الكلام ولم يوفق الى تبنيه حتى فى عصور ازدهار الحضارة العربية ، وانما كانت فنون الكلام عندهم تكاد تقتصر على الشعر الى ان ظهر عبد الحميد الكاتب وابن المقفع فبدأ معهما النثر الفنى عند العرب •

ولقد كان الشعر العربى فى أوائل عهده مليئا بالحياة نابضا بالجدل والحوار • وعرف الشعر العربى فى هذه العصور الاسلامية الاولى عددا من الثورات والاصلاحات وكان فى الجملة مواكبا لما كان يحدث فى المجتمع الذى انتجه من مشكلات فى الميدان السياسى والاجتماعى والنفسانى • ثم حل بعد ذلك عصر الجمود وقرون التقهقر فاصبح فن الادب عند العرب مجرد صناعة لفظية خالية من كل معنى بعيدة عن كل عمق •

وهكذا بعد ان كانت الحركة الفكرية والادبية العربية تقوم بدور اللقاح وتساعد على بعث حركة الفكر والثقافة والعلوم بأوروبا اصبحت الآن بدورها هرمة عاجزة عن الخلق والتقدم ترقب صدمة تبعثها من سباتها العميق ٠

وحدث هذا الاتصال مع أوروبا المتقدمة المتمدنة في القرن الماضي فكانت صدمة عنيفة هزت اركان العالم العربي وجعلت كيانه ومصيره في خطر داهم ٠ وكان لهذه الرجة القوية أحسن الآثار في الميدان الثقافي اذ عمد المثقفون العرب الى الدعوة والعمل من اجل نهضة ادبية وفكرية شاملة تواكب وتساند ما قد بدأ يظهر في العالم العربي من بوادر البعث السياسي والنهضة الاجتماعية ٠ وتسابق الكتاب والمفكرون العرب الى روائع ما انتجته الحضارة الغربية الغالبة من آثار فنية وأدبية يتشبعون بها ويستلهمونها الحكمة والقدرة على الخلق والابداع ٠

وفي هذه الفترة تحررت الفنون الادبية المعروفة عند العرب من القيود القديمة التي كانت تثقل كاهلها ٠ وبدأ الشعراء العرب يتحدثون عن الشعر الحر ويتخلون احيانا عن القافية وعن المصراعين في البيت وعن أوزان العروض وبحور الخليل لينصرفوا الى الاهتمام برقة الالهام وصفاء القريحة ودقة تصوير العواطف المتأججة ٠ ثم ظهرت في الادب العربي فنون كتابية جديدة مأخوذة عن الغرب مثل المسرحيات والقصة الطويلة والاقصوصة ، وأخذ دور النقاد الادبيين وقيمة كتاباتهم يتعاظمان يوما بعد يوم ٠

نعم لقد كان لهذه الثورة في الميدان الفكري فضل لا ينكر لكن مغالاة بعض الكتاب العرب في الخروج عن كل التقاليد الادبية العربية والافراط في الاقتباس عن أوروبا في شكل الادب وحتى في مضمونه كل ذلك جعل الكتابة الادبية العربية مهددة بالمسخ والزوال في جوهرها محكوما عليها بان لا تخرج يوما من وضعية المستهلك البسيط الى حال الانتاج الطريف والتبادل الحضاري وألا تقوم بالمساهمة في اثراء التراث البشري التي هي اساس كل نهضة حقيقية ٠

وقد تسبب هذا التذبذب وهذا الافراط في الاقتباس والنسج على منوال الآداب الاجنبية في ظهور مشكل الاصالة بالنسبة الى الادب العربي ٠ هذا وان النظر في أصالة أدب ما مسألة على جانب كبير من العسر والتشعب اذ هي تتعرض الى إبراز عناصر شخصية هذا الادب المعين في اخلص ما يمتاز به عن غيره كما تعمد في نفس الوقت الى مسألة اتصال هذا الادب ببقية الآداب الاخرى سواء كانت هذه الاداب مشتركة معه في نفس اللغة أو غريبة عنه شكلا ومضمونا فلو حاولنا مثلا ان ندرس اصالة الادب التونسي فانه يتعين علينا ان ندرس هذه الاصالة بالاعتماد أولا على الخصائص المميزة لهذا الادب ثم بمقارنة الادب التونسي بآداب سائر البلاد العربية ثم بدراسة التأثيرات

المتبادلة بين الادب التونسي وغيره من الاداب الاجنبية الاخرى . ويتضح لنا اذن أنه من المتحتم علينا ان ننظر في مفهوم ما يسمى بالادب القومي أو الوطني ليكون ذلك خطوة أولى في سبيل تحديد مفهوم الاصالة الفنية أو الادبية .

الأدب القـــومـي :

يبدو للناظر من أول وهلة أنه يوجد شيء من التناقض بين مهمة الكاتب في معناها الواسع المطلق وبين الاقتصار على ابراز الخصائص الجمالية الكامنة في مجموعة قومية معينة . غير انه من الطبيعي في الحقيقة أن يتخذ الكاتب والشاعر مادة لأدبه من هذا الوسط الانساني والبيئة الاجتماعية التي هي محيط حياته مع ما تحمله من مشاغل ومن عديد المشاكل . فالاديب الحق هو في الواقع لسان قومه ورائد أمته . وانه من واجبه بطبيعة وضعه الاجتماعي وباعتباره فردا من المجموعة الوطنية ان يكون له الاقتدار على وعي مشاكل هذه المجموعة وتفهم نفسيتها والاحساس بأشواقها وبآمالها وبآلامها . نعم ومن واجبه ان يكون متشبعا بروح قومه وبمشاعر مجتمعه في حركته الدائبة وفي بحثه المتواصل من اجل ادراكه حقيقة نفسه . فمن الذي يستطيع ان يظفر بكنه مسرة المجتمع أو بجوهر ألمه أو بقرارة أمل خاطف من آماله ومن الذي يستطيع أن ينقل هذا الاحساس الاجتماعي او ذاك بدون ان يلحق به ضيرا ولا تغييرا ، من يستطيع ذلك سوى ابن من ابناء ذلك الشعب تجري في شرايينه دماؤه ويخفق قلبه بوميض رجائه ويحس احساسا باطنا بخلجات نفسه . فابناء الشعوب هم دعاتها وألسنتها .

هذا وان رسالة الاديب أو الفنان بين قومه رسالة جوهرية اذ ان الشعوب لا تكتفي بالخبز غذاء . فمكانة الشاعر أو الكاتب المسرحي مثلا هي مكانة الطليعة من الأمة يحمل في عنقه رسالة السمو بالفترات الثرية من تاريخها وإكسائها ثوب العظمة والجلال الفني والوصول بها الى مقام الجمال الخالد والروعة التي لا مجال لفنائها .

فحينما كانت حياة العرب في الجاهلية تقوم على نظام القبيلة كخلية سياسية كان دور الشاعر في قبيلته جوهريا يتجاوز احيانا من حيث القيمة دور رئيس القبيلة نفسه وكان افراد القبيلة شاعرين تمام الشعور برسالة الشاعر فيهم . اما هوميروس سيد شعراء اليونان فقد اسدى لأمته من الخدمات بين الامم ما يتجاوز اعمال كل الساسة والقواد العسكريين من بني الاغريق . ثم ان اهمية وجود أدب قومي بالنسبة الى كل شعب تتجلى بالخصوص اذا علمنا ان افراد كل مجموعة بشرية هم في حاجة ملحة الى استهلاك الانتاج الادبي لا غنى لهم عن ذلك ؛ وانهم اذا عجزوا عن الظفر بما يلبي هذه الحاجة لدى شعوبهم فانهم مقبلون لا محالة على آثار الامم الاخرى يسدون بها الفراغ الموجود لديهم . وهذا الالتجاء الى تراث أمة أخرى لسد

حاجة الفكر والروح يمكن ان يكون له أثر خطير اذا أصبح هذا التراث الغريب يحل محل التراث القومي ويعوضه شيئا فشيئا • ومن أخطر نتائج هذه الحال الشاذة ان تذوب معالم الشخصية القومية وتتلاشى رويدا رويدا اذا لم تجد من يتداركها • كما تتجلى ظاهرة غريبة تتمثل في انتشار حس فني مزيف مبني على تركيب عادة شرطية ناتجة عن ممارسة طويلة مستمرة لآثار مجتمعات اجنبية تختلف ظروفها وملابساتها الاجتماعية والسياسية والبشرية عن ظروف المجتمع القومي وملابساته • ويؤول استمرار مثل هذه الحال الى شعور بالنقص واحساس بضرب من اليتم الثقافي • ومن شأن هذا الشعور ان يقف حجر عثرة في سبيل كل محاولة للتغلب على هذا الشذوذ وان يعرقل كل عمل يرمي الى بعث حركة فكرية قومية والى تركيز بوادرها وتشجيعها في تهادي خطواتها الاولى •

وهكذا يتضح لنا من هذا الوجه وجوب العناية ببعث أدب قومي وبتشجيعه اذ ان الادب القومي هو تعبير عن روح المجموعة البشرية التي يصدر عنها وهو عرض وابراز لمثل الشعب في اخص مميزاتها وهو صورة صادقة لما يمتاز به هذا الشعب من مواهب كامنة ومن عبقرية فكرية وانسانية تتعلق بحضارته وتاريخه •

ولسنا في حاجة الى ان نؤكد هنا ان هذه النظرة التي اسلفناها في خصائص الادب القومي أو الوطني انما هي ترمي الى تبسيط معالم هذا المفهوم وتقتصر على ابراز العناصر الاساسية فيه • اذ اننا في حقيقة الامر لسنا من دعاة الاقتصار على أدب قومي مغلق على نفسه • فليس يكفي هذا الادب ان يكون قوميا حتى يكون أدبا وحتى يكون أصيلا ، بل لا بد لهذا الادب اذا هو أراد ان يتميز بالاصالة وان يظفر بالخلود، ان يكون أدبا انسانيا يسهل عليه ان يربط الصلة بآداب الامم الاخرى وأن يتبادل معها التيارات الفكرية على صعيد الانسانية ، كما يساهم بقسطه في تقدم الانسان وتفتح آفاق عيشه وسيره نحو الكمال والسعادة حيثما كان ، حتى تزيد علاقات الشعوب وثوقا ويزيد ايمانها بالخير رسوخا •

فليس لأدب وطني ان ينعت بالاصالة ما لم يتضمن خصائص من الشمول الكوني وما لم يبلغ اعلى مراتب الانسانية بدون ان يفقد خاصية تأصله ، وعلاقته المتينة بالأمة التي انتجته ونسجته من خلجات نفسها ومن حرارة الدماء المتدفقة في شرايينها •

الاصالة :

نعم هذه بوادر الاصالة الادبية والفنية قد بدأت تتجلى لنا • فلتطالع مثلا ماساة من مآسي سوفوكليس ، أو لتترنم بابيات من شعر طرفة بن العبد أو بشار بن برد أو أبي الطيب المتنبي أو أبي القاسم الشابي ، ولتقرأ كتابا

لدوستويفسكي أو قصة لهمنغواي ، ولتتفرس قصيدا لفاليري أو لرامبو ولتشاهد مسرحية لشكسبير ٠ فهناك رابطة تجمع بين كل هؤلاء الفنانين على ما بينهم من اختلاف وتباعد (وقد ذكرناهم هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر) وهذه الرابطة هي شعورك وانت تمارس آثار كل منهم انك بازاء عالم انساني باسره ٠ أو حال من تلك الاحوال التي يتحدث عنها الصوفية والتي يستحيل فيها الانسان عقلا صرفا أو روحا محضا ٠ ففي كل من هذه الروائع الفنية الادبية يشعر القارىء من أول وهلة بان الاشخاص والحالات المعروضة لا تختلف كثيرا عما نشاهده في الحياة اليومية في هذا المجتمع او ذاك من المجتمعات التي ينتمي اليها الفنانون ٠ فكل واحد من هؤلاء الادباء قد لاحظ ما يدور حوله وصور لنا ما اختار ان يصوره منه بحسب اختصاصه الشعري أو المسرحي أو القصصي ٠ ولكنه عبر عن ذلك المشهد العادي بطريقته الخاصة ووضع في تعبيره من الحرارة ومن الايمان ما سما بأثره الى مستوى الآثار الخالدة ٠ وهذه هي في الحقيقة منزلة كل فن اصيل وكل أدب اصيل ٠ عليه أن يستجيب لهذه الثنائية الحتمية : ان يكون في الآن نفسه خاصا وعاما ، ان يكون قوميا خاصا وانسانيا عالميا معا ٠ هذا واننا اذا امعنا النظر في الامر اتضح لنا ان ارضاء طرفي هذه الثنائية معا ليس بالمتعذر على المفكر لانه لا يوجد تناقض وتقابل بينهما ٠ بل ان الاصالة الفنية تكمن في تجاوز هذه الثنائية للوصول الى درجة يصبح فيها الخاص عاما ويكتسي الحدث القومي الضيق ابعادا انسانية عامة ٠ فالاصالة هي اذن ايمان وثقة بالفن كما انها ايضا ايمان وثقة بالانسان ٠

والاصالة بالنسبة للكاتب هي الايمان بشيء من الاشياء ثم الاخلاص لهذا الايمان في السلوك العادي وفي العمل الفني ٠

ان منزلة الفنان هي كما ذكرنا ان يكون في الطليعة المجاهدة من أمته ٠ ودور الكاتب او الشاعر في ميدان التفكير والتعبير ليس هو مجرد تسجيل مسيرة قومه وانما دوره ايضا وبالخصوص أن يكون محرك هذه المسيرة ورائدها ٠ يجب عليه ان يكون المحرك الحي الدافع الى الرقي والعدالة والانسانية الفاضلة ٠ فالاديب سباق الى الخير وليس من باب الصدف أن كان عدد كبير من خيرة المفكرين والادباء انبياء مجهولين بين اقوامهم ، لان مهمة الاديب السباق هي ان يزرع من حوله بذور الانسانية الجديدة المتطورة المتجهة دائما الى الامام ، الى المستقبل ٠ ومن اجل ذلك كان واجبا على الاديب الاصيل ان يكون داخل مجتمعه قيمة وقوة ٠

عليه أن يكون قيمة معترفا بها بفضل نفاذ بصيرته وسعة ادراكه ونبل انسانيته وعليه ان يكون قيمة وقوة بفضل كفاءته الفنية واحساسه بالجمال وشجاعته واقدامه في الحق ثم ان الاديب الاصيل هو ذاك الذي يعبر للناس عن اصالة أمته وقيم شعبه بعد ان يكون قد ادركها اولا وشعر بسموها واقتنع

بصنبغتها المثالية • انه يضع نفسه فى خدمة هذه القيم ليعرف بها ابناء شعبه • نعم يضع امكانياته ومواهبه وفنه فى خدمة هذه القيم ليعرف الناس جميعا بعظمة قدرها وجمال انسانيتها وسر خلودها •

ولا ينبغى للكاتب أن يسعى وراء المطلق اذا هو اراد خدمة الانسان وادراك الخلود • فمهمة الكاتب ليست تتمثل فى تصوير انسان مطلق يعيش فى بيئة مثالية مصطنعة ليصل بذلك الى المستوى العالمى • وليس هو بمدرك قمم الجمال الانسانى والحق الانسانى إلا اذا هو عاد الى منابع الالهام الواقعية الحقيقية أى الى حالات وظروف انسانية محسوسة يمكنه مشاهدتها والمشاركة فى عيش اطوارها •

ولست اقصد بكلامى هذا ان افرض على الفنان ان يقصر فنه على تسجيل الحقائق الاجتماعية وان يجعل من الواقع الذى يحيط به المصدر الوحيد لالهامه والموضوع الوحيد لفنه • بل انى أعتقد على عكس هذا انه لا يمكن ان نفرض شيئا على الفنان الحقيقى أو على الاديب الحقيقى لانه اذا كان كذلك كان انسانا ممتازا لا يمكن ان تكون منابع إلهامه ومصادر وحيه وموضوعات فنه إلا انسانية أصيلة • فبامكانه ان يصور لنا ظروفا اجتماعية مقتبسة من الواقع او ان يقدم لنا حالات انسانية بناها بالاعتماد على ما يؤمن به فى ضميره وما يكنه من عاطفة جمالية خاصة به ، فاذا كانت الاصالة متوفرة فى انتاجه فان هذا الانتاج يأخذ بقلوب مواطنيه أولا ومعاصريه ثانيا •

وحتى ذلك الفنان الذى اختار الاعتكاف ببرجه العاجى واعتزال الناس فانه هو ايضا يعبر فى آثاره عن عالم باسره هو عالمه الخاص به الذى لا يمكن فصله عن عالم البشر بوجه عام لانه ليس بامكان فرد ان يقطع صلته مطلقا بمحيطه الاجتماعى وبالعالم الذى يعيش فيه • بل ان نفس مجهوده للانعزال يحمل دلالة اجتماعية ومعنى بشريا يعبر عنهما موقف الفنان بالرغم عنه •

فباعتبار الاديب انسانا نرى انه ليس بامكانه ان لا يكون متضامنا مع افراد البشرية التى يعيش ضمنها والتى تؤثر الى حد بعيد فى كيانه وتكوينه• وبفضل ما يختص به من حساسية مرهفة وبصر نافذ وقدرة على النظرة الجامعة حيث لا يرى غيره الا جزئيات مبعثرة يتحتم عليه ان يكون دائما على أهبة واستعداد لتجاوز ما يحيط به من زيف الحياة وصخبها والنفاذ الى مكامن الجمال وخبايا الحق والخير •

وهكذا يشع الاديب هذه القيم فى مجتمعه وفى أمته ، فاذا هو شعب أصبح رجلا واذا هو مجموعة بشرية اصبحت صوتا صداحا •

وهذه الناحية هى من ابرز خصائص الاصالة التى نتحدث عنها فى ميدان الفن والادب • اذ ان الاصالة هى نوع من الرجوع الى الأصل والعودة الى

النفس • وهل ادل على هذا الرجوع الى الاصل والى الكنه عند الفنـان من ان يدرك وان يصور اقرب ما يجده فى نفسه وفى مجتمعه وبالتالى فى دنيا البشر الى جوهر الجمال وجوهر النشوة وجوهر الطرب من سرور وحزن •

انا نلاحظ اذن ان العمل الادبى يشتمل على عنصرين اساسيين :

1) النفاذ من وراء المظاهر اليومية المعهـودة الى الحقـائق والقيـم الخـالدة الاصيلة •

2) ابلاغ هذه القيم الى الناس فى قالب فنى دون تبديلها أو تغيير دلالتهـا ولقد اشرنا الى بعض نواح من مجهود الكاتب فى البحث عن النفاذ الى الحقائق المستترة وادراكها فلننظر الآن فى خصائص طريقة التعبير عن هذه الحقـائق فى صورة فنية أصيلة •

ان مسألة التعبير الفنى هى ايضا من المسائل المتشعبة التى لها مسـاس مباشر بالاصالة خصوصا فى ميدان الادب • فهناك ناحية أولى لا جدال فيها وهى ان القدرة على التعبير الفنى ليست فى متناول جميع الناس • فالشعور الفنى او الحس الشعرى يولد مع بعض النـاس يتميـزون منـذ صغـرهم ثم يتعهدونه بالرعاية حتى ينمو ويقوى فالفنان الحق ليس هو ذاك الذى يؤثـر فيه المنظر الرائع فحسب بل هو الذى يستطيع ان يؤثر فى الجمهور وان ينقل اليه طربه عندما يصور له ذلك المشهد وعلى الفنان أو الاديب أن يستعرض فى كل مرة بصورة واعية أو لا شعورية كل الامكانيات التى يملكها للتعبير عن الجمال الذى يسحره حتى يختار بين هذه الوسائل العديدة ابلغها اثـرا واجداها فى نقل ما يشعر به من طرب وتأثر الى جمهوره والى مجتمعـه والى الانسانية قاطبة • وان بين الاحساس الفريد الذى يشعـر به الاديب وبين ما ينقله بعض الفرق طبعا يمكن الاديب من السمو بهذا الاحساس الى مستوى الروعة والجمال المطلق فى تعبيره عنه • وهذه احدى خصائص التعبير الفنى الذى ليس هو تقليدا للواقع بل نقلا له من خلال نفس الفنـان وشعـوره • وبوجه عام فان عدد الذين يتأثرون امام مـرأى الجمـال أكبر بكثير من عـدد الذين يقدرون على نقل تأثرهم واشعار غيرهم بقوة هذا الجمـال الذى يملك على الانسان انفاسه والذى تحجبه عن الناس استـار التعـود وحجب طول المراس • ناهيك ان وسائل التعبير الفنى نفسها وان الكلمات والجمل تفقـد شيئا فشيئا من قوتها ويضيع محتواها مع طول الاستعمال • وهنا يتضـح دور الفنان فى اعادة الحياة الى هذه الوسائل وخلقها من جديد بفضل التحسس الفنى الدائب والبحث عن السبل الجديدة للتعبير •

ومما يزيد فى صعوبة هذا المجهود الذى يقوم به الفنان ان هـذا الاخيـر انسان يعيش فى مجموعة بشرية معينة غذته بتقاليدها وامتزج لحمه ودمـه بمعالم تاريخها فليس بامكانه ان يقطع الصلة بهذه التقاليد والمعالم الحية معه

لانه اذا قطع صلته بماضيه فقد قطع صلته بحاضره ايضا وفقد وجوده كفنان وكانسان • فهذا الاخلاص المتواصل من الفنان لعبقرية شعبه وأمته (سواء كان مقصودا أو فطريا) هو مظهر آخر من اهم مظاهر الاصالة فى التعبير الفنى • وأود ان لا يفهم من كلامى هنا انى انصح بتقليد القدماء ، ولكنى انادى فقط بوجوب ربط الصلة الدائمة بهؤلاء القدماء الذين لا يتصفون احيانا بالقدم إلا من الوجهة الزمنية لأن الكثير من القدماء معاصرون لنا من حيث جدة الموضوعات التى تعرضوا اليها فى آثارهم ، وانهم سوف يبقون كذلك ما دام بالارض بشر • إذ أن الاثر الاصيل هو الذى ينطلق من ظروف زمنية ومكانية معينة ويصبح انموذجا صالحا لكل زمان ومكان فى تاريخ الانسان •

هذه هى اهم الشروط التى يمكن لفنان او لشاعر او لكاتب ما ان يزعم اذا ما تحلى بها انه فنان أصيل•فهناك هذا الاخلاص من الفنان لنفسه وقبول تحمل الانسان منزلته البشرية • وهناك هذا البحث الدائم عن كل ما له صلة بالانسان وهناك ايضا هذا الالتزام فى وضع الفنان فنه فى خدمة القيم الانسانية التى آمن بها •

وقد لاحظتم بدون شك ان الاصالة هى موقف قبل ان تكون خاصية يمتاز بها الأثر الفنى ، هى موقف الفنان فى تناوله أثره • وهل يمكن الفصل بين الفنان واثره !

واظن انه يمكننا الآن ان نقول إن الانتاج الاصيل هو ذاك الذى يساعد الانسان فى هذه الحياة على ان يعى المشكلات الحقيقية التى تعترض سبيله باعتباره كائنا اجتماعيا وباعتباره كائنا بشريا • اذ ان مهمة الانتاج الفنى او الادبى هى ان تسمح بفتح النقاش وباستمراره وتمكن من الايمان بامكانية الوصول الى حل بعض المشاكل الملموسة من وراء هذا النقاش المتصل بجوهرى الأمور •

ونود الآن قبل كلمة الختام ان نلقى نظرة على مفهوم له أهمية كبيرة اليوم بالنسبة لمشاكل الأدب الحديث وبالنسبة لممارسة هواية الأدب بالخصوص بيد انه يتصل كذلك اتصالا متينا بمشكل الأصالة فى الأدب اعنى بذلك مفهوم الالتزام •

ذلك ان منزلة الكاتب او الشاعر فى البلاد النامية تتميز بعدم الاستقرار الفنى وبانها ليست من المعطيات الثابتة • فاذا أخذنا البلاد التونسية مثلا نستدل به على ذلك وجدنا ان الانتاج الادبى التونسى فى الوقت الحاضر هو صورة لظروف البيئة الاجتماعية ولحالة المواطن التونسى • فالبلاد اليوم بمثابة حضيرة ضخمة جبارة ترمى جهود كل فرد منها الى التشييد والى بناء مستقبل نتفق جميعا على انه يجب ان يكون مزدهرا مشرقا ولكن لا نستطيع

ضبط ملامحه فى دقيق جزئياتها • كما لا نقدر ايضا على ضبط الحاضر الذى نعيشه فى جميع دقائقه وكامل جزئياته لانه ليس بامكاننا ان نتخلص من الانغماس فيه حتى نشرف عليه • وهنا تعترضنا من جديد مشكلة الاصالة بالنسبة الى الاديب الذى يعيش فى مجتمع من مجتمعات البلاد النامية • فان هناك صعوبة فى ضبط أسس الشخصية القومية ضبطا كاملا وفى ربط العلاقات بين الماضى والحاضر • كما ان هناك صعوبة فى ضبط العلاقة التى تربط البلاد النامية بالبلدان المتقدمة (وان الصعوبة لتزداد اذا كانت البلاد المتقدمة التى نحاول ضبط صلتنا الثقافية والفنية بها هى نفس البلاد التى كانت تسيطر على حظوظ البلاد النامية قبل استقلالها) • فان التقدم والتفوق الذى تتميز به الدولة المستعمرة بالنسبة الينا فى ميدان الثقافة والفنون قد كان يعد قبل الاستقلال مظهرا من مظاهر الحيف وسببا يجلب العار الينا اذا اضطررنا الى المقارنة بين حالتنا وحالتهم • وقد اضطرت كثير من البلدان النامية الى اتباع نظام سياسى يتسم باهمية دور النفوذ المركزى وذلك لان متطلبات النهضة الاقتصادية والاجتماعية تفرض نظاما سياسيا يسمح باختصار المراحل والتغلب على مختلف العقبات التى تسببها قلة الوعى وعدم ادراك المواطن مصالحه ومصالح وطنه بصورة عفوية وبديهية • فاذا اضفنا الى ذلك اختلاف التكوين الموجود بين قسم من المواطنين من ذوى الثقافة التقليدية وقسم آخر من ذوى الثقافة الاوروبية • ثم اذا علمنا ان عددا كبيرا من سكان البلاد لم يحصلوا على أى تكوين شعرنا بصعوبة منزلة الفنان الباحث عن الاصالة فى المجتمع النامى • فاين تبدأ الشخصية القومية ؟ وأين تقف شخصية الآخر ؟ وما هى العناصر القارة الثابتة ؟ وما هى العناصر المؤقتة ؟ وما هو الجوهر من الاعراض ؟ كل هذه الاسئلة لا يمكن الاجابة عنها بسهولة • فالمجتمعات فى البلاد النامية تتميز بانها تشكو شيئا من التذبذب فى سلم قيمها وذلك بسبب الانتقال السريع من الحضارة التقليدية الى الحضارة العصرية وبسبب العلاقات المتشعبة بين المجتمعات النامية والمجتمعات المتقدمة القائمة على اولوية الازدهار المادى •

وقد يبدو لنا من اول وهلة ان الفنان والاديب قد حكم عليه ازاء هذه الحال بالعجز والتذبذب • ولكن سبل الاصالة متعددة متشعبة • فهل هناك أروع من هذه الانسانية الحية الباحثة عن نفسها الثائرة على مظاهر الشقاء والتخلف • انها انسانية تكافح من أجل بناء مصير طالما افلت من قبضتها وقد استعادت اليوم التحكم فيه واسترجعت حريتها فى تكييفه كما تشاء وتختار •

والفنان يشهد كل يوم هذا الكفاح من أجل كرامة الانسان ويساهم فيه فى كل لحظة ويشعر بان مجتمعه يجتاز فترة حاسمة من تاريخه بل ومن تاريخ البشرية جمعاء • لقد كان الكاتب الفرنسى فولتار يؤكد ان الاجيال التى

ستأتي بعده سوف تشاهد اشياء جميلة · ونحن بدورنا نعيش اليوم بتونس فترة من اجمل فترات تاريخ البشر ·

وانا لنرى الآن سعة المجال بالنسبة لعمل الفنان والاديب والشاعر فى بلاد كبلادنا وفي فترة ثرية كالتى نجتازها اليوم · فالفنان الاصيل يستطيع اليوم بفنه ان يساهم فى تحقيق الاغراض التى يعمل شعبه من اجـل بلـوغها · ومصادر الالهام متعددة متنوعة ، بتعدد وتنوع الملابسات البشرية والعلاقات الاجتماعية الاصيلة التى نشأت بنشوء النظام الانسانى الجديد · فبالاضافة الى البطولات والتضحيات التى سمحت للانسـان التـونسى بان يكون سيد مصيره وان ينصرف لبناء مجتمع جديد وان يساهم فى كتابة صفحات خالدة من تاريخ بلاده ، قلت بالاضافة الى هذه البطولات نجد الثورة المتواصلة فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قد اوجدت حالات انسانية خصبة يمكن استغلالها واتخاذها موضوعا للكتابة الادبيـة والخلـق الفنى · فهناك موضوع القائد السياسى المتحسس للطريق التى تضمن الخلاص لامته مع ما فى هذا البحث والسير وسط الاخطار المتعددة من مواقف انسـانية اصيلة يمكن ان تستغل فنيا فتؤول الى خلق انموذج بشرى له ابعاد عالمية من حيث الفن · وهناك ايضا مشاكل تحول المجتمع من فترة التقليد الى مرحلة المدنية العصرية وهناك تحرر بعض الاصناف الاجتماعية وما نشأ عن تحرر المرأة من مشاكل ومن مواقف انسانية جديرة بان تخلد ، وهناك ايضا مواقف أخرى يمكن استغلالها لها علاقة بتطور الارياف مثلا وبظهور الحضـارة الصنـاعية وببعض الحالات التى لها علاقة بالدين والاخلاق · كل ذلك مع العلم بان تاريخ بلادنا الحافل بالمواقف الانسانية الثرة لم يقع استغلاله فنيا الا فى القليـل النادر وانه يمثل رصيدا هائلا ومصـدرا من اغنى مصـادر الالهـام بالنسبة لادبائنا وشعرائنا ·

واني واثق من ان مثل هذه العودة الى التعمق فى نفـوسنا والتـأمل فى أمجاد أمتنا الحاضرة والماضية من شأنها ان تبلغنا هذه الاصالة الادبية التى لم نزل نبحث عنها فلا نرى من مظاهرها الا القليل ·

وانى اريد ان اختم كلمتى هذه بان اتجه الى شبابنا الهـاوى والى ادبـائنا المحترفين فاقول لهم إن الخلق الفنى لا يمكن ان يكون الا نتيجة جهد متواصل وعمل مستمر دائب وطويل النفس · وان طريق الابداع والعبقـرية طـويلة ومليئة بالاخطار ، تنطلق من موهبة شخصية وتسير نحو قمم المجد · فطوبى لمن وجد فى نفسه من الصبر والأناة ومن الدربة على مكابدة المشاق ما يساعده على بلوغ مصاف الخالدين ·

محمد العربى عبد الرزاق

زورقي في الخضم ...

شعر : الهادي نعمان

زورقى فى الخضم فى مهمه التيـ ـه وحيدا يجد فى الابحار
متعب مثقل بعبء أمانيـ ـه شريد ما مل من أسفار
ترك الشاطىء الحبيب وشق الـ ـبحر ليلا يجيش بالأخطار
ظلمات الخضم فى ظلمة الليـ ـل شقاء الرحيل دون قرار

* * *

... ومضى كالربيع يأكله الصيـ ـف جفافا من دون ما أنوار
حالما بالحياة فى قسوة اليأ س شديد الصمود فى التيار
الخضم العريض يزخر بالأمـ ـواج رعبا والسعد فى إدبار
وبروح الحياة فى قلبها الخا فق لحن يزيد فى الاصرار
العناد الكبير بعض أغانيـ ـه ومجد الحياة فى الأوتار
قيل من ذا الذى يشق عبابا ويزين الوجود بالاشعار
فاجابت دنيا الحقيقة . هذا بعض روحى وروح عز شعار

* * *

يا خضما حملت لحنا غريبا زورقا حظه المنى فى عثار
طالما اشتاق للسلامة دهرا كاشتياق الحمام للأوكار
عصفت فيك عاصفات الليالى بفؤاد ينوء بالأسرار
كل سر له أقاصيص حب فى أعاجيبها وما من قارى
عاشها وحده فؤاد غريب بثها ضائع لدى السمار

* * *

يا أليف الصبا وبعض وجودى أيها البحر يا دنا أقدارى
ورفيق الشباب منذ زمان ومنير الجمال فى أنظارى
وسجل الخلود مذ كان دهر ورجائى فى غربتى وسفارى
فيك بعضى وفيك كلى وهذا زورقى فيك ضاع فى التسيار
هل له رجعة . فيرتاح يوما وتفوز المنى بخير قرار
وعلى الشاطىء الحبيب يحط الـ ـرحل من بعد سفرة الأغوار
وتجىء الشمس الحبيبة فى فجـ ـر جميل بشرى بأزهى نهار ...

الهادى نعمان

من وقائع الدغباجي (1)

واقعة المغذية

6 افريل 1920

بقلم : محمد المرزوقي



محمد الدغباجي

حامة قابس الواحة الواقعة على نيف وثلاثين كيلو مترا من مدينة قابس اشتهرت - من قديم - بحماماتها المعدنية التي لا تزال مزار المصابين ومرتاد المرضى .

واشتهرت الى جانب هذا بانها مهد البطولات فاخرجت لتونس ابطال الثورات الاجتماعية والسياسية فمنها خرج الدكتور محمد علي زعيم العمال والمرحوم الطاهر الحداد اول مناد بتحرير المراة والشهيد محمد الدغباجي الذي حير فرنسا وجيوشها فترة من الزمن وكاد ان يغمره النسيان لولا عناية حكومتنا الصالحة بالبحث عن ابطال الكفاح التونسي واخراج ملفاتهم من مجاهل النسيان الى عالم النور لترسم اسماؤهم في سجل التاريخ التونسي المجيد

لقد ثار الشهيد محمد الدغباجي (1885 - 1924) في وجه فرنسا في سبتمبر 1915 واصطدم مع جيوشها الجرارة في عدة وقائع حربية سوف نقتصر على ذكر واحدة منها نهديها الى قراء (مجلة الفكر) الحبيبة هي (واقعة المغذية)

* * *

(1) من كتاب (محمد الدغباجي) الذي اعده صاحب المقال للطبع .

فى دوار من بدو (الغرايرة) نازل بالمكان المسمى بـ (المغذية) غـربى (وادى الطين) من اراضى هنشير (سيدى مهذب) التابع لولاية صفاقس حل الدغباجي فى جماعة من رفاقه وذلك يـوم 6 افريل 1920 ، وفى هـذا الدوار دهمتهم قوات عمار بن عبد الله التى كانت تتبع آثارهم من مكان بعيد .

ورأى الدغباجي اللاحقين وادرك انه لا يستطيع أن يفوتهم ومعهم الخيـل السريعة فخف مع رفاقه الى مكان قريب من الدوار متصديا للدفاع ، ولم يبق من الوقت ما يكفيـه لاختيار مكان أحسن فقد هاجمته الخيـل المتلاحقة وامطرته القوة بوابل من الرصاص .

وكانت عصابة الدغباجي ـ حسب رواية المبروك بن مفتاح تتركب من :

محمد الدغباجي (من بنى يزيـد) والمبروك بن مفتاح البقيلي (من بنـى يزيـد) وابراهيم بن حفيظ الشعيلى (من بنى يزيـد) ومحمد بن عمـارة الجماعى (من بنى يزيد) واحمد بن مرزوق الغيلوفى (من بنى يزيد) وحسين الجماعى (من بنى يزيد) وعامر الجماعى (من بنى يزيد) وبلقاسم بن لطيف الجماعى (من بنى يزيد) ومحمد بن سعـد الدبابى (من تطاوين) واحمـد الحزامى (من الحزم احواز قابس) وعمر كريد الحامدى (من حوامد طرابلس) واحد ابناء غمراسن (من غمراسن) .

وفى رواية اخرى لنفس الراوى يذكر من بين أسماء العصابة: احد العكارمة من (الهمامة) والمبروك الربعى (من الحامة) وجماعة بن جماعة (من الحامة) .

ويظهر منهذا الخلط فى رواية الاسماء ان كامل الروايـة غيـر جديـرة بالاطمئنان فالراوى يؤكد من جهة انهم اثنا عشر ويذكر من جهة اخرى خمسة عشر اسما وهو يتردد ايضا فى تعيين المكان فتارة يقول ، ان هؤلاء حضروا واقعة المغذية وتارة اخرى يذكر ان الواقعة التى حضروها كانت بتراب قفصة .

وعلى كل فالمؤكد ان الدغباجي كان فى عـدد من رفـاقه وان القـوات التى هاجمتهم كانت تعد نحو الثلاثمائة .

وبدأت المعركة فى قـوة وعنف واستطاعت القوات الحكومية ان تطـوق العصابة ، وادرك الدغباجي ـ وقد سقط بعض رفاقه جرحى ، كما جرح هو فى ذراعـه الايسر ـ ادرك ان ذخيرته تضمحل ، وان الطوق حولـه متـين ، ولا يمكن ان يطمع برجوع المهاجمين عنه ما دامت امداداتهم وافـرة ، وادرك ابناء عمه من القوة الحكومية ان ابنهم اصبح بين انياب الموت لانه اما ان يموت داخل الحصار واما ان يموت بيد الفرنسيين ان سلم نفسه حيا ، فغلت دماؤهم وظهرت بوادر الثورة فى عيونهم ، فمشوا بعضهم الى بعض وتحدثوا وتآمروا ،

وقرروا اشياء سرية لا علم للقائد ولا اعوان الحكومة بها بل يشاع ان القائد تفطن للمؤامرة فسكت عنها حتى لا يلمز بالخيانة ، او ربما عرض نفسه للانتقام ، ولعله ادرك ان مشاركته لابناء عمه بالسكوت اجدر به من المعارضة التى ربما عرضته للموت ، وطلب شيوخ بنى يزيد من القائد ان يامر بكف القتال للمفاهمة مع ابنهم فى التسليم فلم يستطع رفض طلبهم فاوقف القتال وتقدم الى حيث يختفى الدغباجى ، خاله بلقاسم الحمرونى - وقيل ، على الاسود والد الطاهر الاسود المجاهد المعروف فى الثورة الوطنية الاخيرة - وطلب من محمد الدغباجى ان يسلم نفسه .

ويظهر ان الدغباجى كان مطمئنا الى ان بنى يزيد الذين هم قوام القوة المحاصرة له - لن يخذلوه ولن يسلموه للسلطة فاجاب الطلب وسلم نفسه .

افلات الدغباجى :

كيف افلت الدغباجى من هذه الواقعة ؟ تختلف الروايات اختلافا كبيرا فى كيفية ذلك .

فالرواية الحكومية تقول : (1)

« وتمكن (اى عمار بن عبد الله) من محاصرة الدغباجى وجماعته ، وتبادل معهم اطلاق النار ، الى ان ارخى الليل سدوله فاذن الضابط الفرنسى عمار اليزيدى (عمار بن عبد الله) ومرؤوسيه بملازمة الحصار حول الدغباجى وجماعته للصباح ليقع القبض عليهم احياء ، حيث افلت الدغباجى ومن معه اثناء تلك الليلة - حسبما يقال - بمهارته ، بينما يذكر بعض الناس ان محاصريهم كلهم من اصيلى الحامة ، وعز عليهم تسليمه للفرنسيين ، فاخلوا لهم فجوة فى الحصار المضروب تمكنوا من الفرار منها » .

والظاهر من هذه اللهجة ان التقرير نفسه يعتمد روايات الناس اذ ان التقرير لم يكتب فى ذلك الوقت ولكنه حرر - حسب التاريخ - الموجود فى اوله فى 5 ديسمبر 1916 .

وتقول رواية اخرى :

ان الدغباجى سلم نفسه - بشرط منه - الى شيوخ بنى يزيد الذين ضمنوا للسلطة الاحتفاظ به وتسليمه اليها صباحا - اذ كان الوقت ليلا ، وتظاهروا بالاخلاص فعينوا عونا من الصبايحية لحراسة المتمردين ويظهر ان هذا العون كان مختارا قصدا من بين المخلصين ، فلما اطمأن الناس للراحة واشتغلوا

---

(1) تقرير السلطة المحلية عن الدغباجى ص 3 .

بالطعام اشير الدغباجي ورفاقه بوجوب التسلل بكامل سلاحهم الىحيث الفضاء الحر ، وصاح الناس : لقد فر الدغباجي ؟ وتظاهروا بالبحث فى كل مكان دون جـدوى .

وفهمت السلطة سوء النية ، وادركت مؤامرة بنى يزيد فقبضت على اعيانهم ومشائخهم ، وعلى قائد الحملة عمار بن عبد الله واودعتهم السجن ، وسلطت جحيم غضبها على الحامـة واهلها وكونت قـوات عتيـدة من اعوانهـا لمطاردة الدغباجى من جديد .

وتقول رواية ثالثة :

ان الدغباجي اشترط ان يحتفظ بسلاحه وانه لا يسلمه الا عند الاجتماع بقواد الحملة فى الخيام ، ووافقوه على ذلك فخرج فى خمسة من رفاقه الاصحاء وقصد الخيام القريبة وكان يمشى على مقربة منه جماعة من شيوخ بنى يزيـد يبادلونه الحديث بينما اشتغل بعض رجال الحملة بالاسرى من جرحى العصابة الدغباجية الذين سياتى ذكرهم وبالموتى الذين سقطوا فى الواقعـة لينقلوا جميعهم الى الخيام حيث عزموا على قضاء تلك الليلة .

ولما وصل الدغباجي الى الخيمة الاولى ، اشار الى رفاقه بدخول الخيمة لشرب الماء وشغل هو رجال الحملة بالحديث ودخل رفاقه الواحد تلو الاخر الى الخيمة فمن شرب الماء تسلل من الخلف طالبا الفضاء واسـرع هو وراءهـم شـاهرا سلاحه ـ دون ان يشرب ولفهم ظلام الليل ، وطاردتهم القوات دون جدوى .

هذه هي الروايات المختلفة التى معنـاها فى كيفيـة افـلات الدغبـاجي ، وجميعها تتفق على ان افلاته كان بمساعدة بنى عمه من رجال الحملة وهو مـا دفع السلطة الى القبض على كثير منهم وزجهم فى السجن .

نتـــائـج المعـــركـة :

وكانت نتائج المعركة كما يلى :

المـوتـــى : بلقاسم العمامـى من (اعوان الحكومـة) ومحمـد الفطناسى من (اعوان الحكومة) (1) والصبـايحى ابن عليـة من (اعوان الحكومة) (2)

الجرحـــى : احمـد بن مرزوق الغيلوفى من (عصابـة الدغباجى) (3)

(1) هذان الشخصان ذكرهما تقرير السلطة المحلية عن الدغباجى
(2) هذا الشخص تذكره روايات الناس
(3) يقول المبروك بن مفتاح ان هذا الجريح قد مات بعد اسره متاثرا بجروحه

وابراهيم بن حفيظ من (عصابة الدغباجي) وحسين الجماعي من (عصابة الدغباجي) ومحمد بن عمار من (عصابة الدغباجي) والحزامي من (عصابة الدغباجي) والربعي من (عصابة الدغباجي) ومحمد بن سعد من (عصابة الدغباجي) الخ (4) .

اما الجرحى من الجانب الحكومي فتسكت عنهم الروايات .

وقصد الدغباجي من هناك جهة الجنوب حيث خاض واقعة اخرى يوم 12 افريل مع اعوان السلطة ومن هناك افلت الى التراب **الليبي الذي لم يرجع منه الا اسيرا** اوائل 1924 .

محمد المرزوقي

(4) هؤلاء كلهم حسب رواية المبروك بن مفتاح رفيق الدغباجي ، وروايته مضطربة لا تدعو الى الاطمئنان كما ذكرنا سابقا .

سنحرث في البحر !

شعر : رياض المرزوقي

لا تسكب دمعك في أثري
سيغار اللؤلؤ في البحر
قطرات الدمع معذبة
والورد ينام على الجمر
أفدى غيماتك بالدنيا
بالروح ، بآمال العمر
خبىء حبات الدر فقد
خبئت مصيري في الدر

* * *

الليل ينام على كتفي
ويدي تنساب مع الفجر
الصحو أنا لا أعرفه
حتى ألقاه على النحر
بدمي زوقت حكايتنا
لم تكتب يوما بالحبر
فالعطر ينام على قلمي
والسحر تكلم في شعري
في صدرك شوق لا يخفى
والشوق تحرك في صدري
فلنحرق أوهام الماضي وهلم ، لنحرث في البحر

رياض المرزوقي

من مظاهر معركة انصار القديم وانصار الجديد في تونس

نموذج من الكتابات المناهضة للطاهر الحداد :
رسالة « سيف الحق على من لا يرى الحق » لعمر البرى المدنى

بقلم : أحمد خالد

لما صدر كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » للطاهر الحداد نصير المرأة سنة 1930 أثار الضجة الكبرى فى تونس إذ بلغت الحملة ضد هذا الكتاب ومؤلفه حدا بعيدا من الشدة ، وتواصلت أكثر من عامين ، وكانت موضوع افتتاحيات الصحف التونسية الناطقة باللسانين العربي والفرنسي ومصدر إلهام للشعراء والكتاب الذين ناصروا المصلح التونسي أو ناهضوه • وهذا يدل على أن قضية الطاهر الحداد ملأت البلاد وشغلت الناس فى عصره وأثرت الصحافة والشعر والنقد والانتقاد • والحق أنها قضية جيل كامل من أنصار الجديد متحفز الى النهضة ، تواق الى التخلص من رواسب قرون الظلام وعصور التدلى • غير أن هذا الجيل ـ فى توقه الى الغد المشرق وفرحة الحياة ـ كان يلقى مناهضة شديدة من طرف المتزمتين عبدة القديم •

ألا ترى أن الطاهر الحداد نصير المرأة كان ينطق فى عصره بلسان جيله من الأدباء الشبان اليقظين أمثال زين العابدين السنوسى ومصطفى خريف ومحمد الصالح المهيدى والهادى العبيدى وأحمد الدرعى وبخاصة أبى القاسم الشابى الذى تبينت قرابة فكرية وثورية بينه وبين صديقه الطاهر الحداد فى موضوع ترقية المرأة فى البحث الذى قدمته بعنوان « الشابى والمرأة » بمناسبة عيد ميلاده الثلاثين بالاعتماد خاصة على فقرات من كتابه « الخيال الشعرى عند العرب » المطبوع لأول مرة سنة 1929 وعلى رسالة للشابى بعثها الى صديقه محمد الحليوى سنة 1930 ؛ وفيها يصف الجو السائد فى تونس العاصمة حين تسمم الجو على صديقه المصلح ولا يخفى عطفه عليه ، وبالاعتماد كذلك على وثيقة ظلت منسية فى نشرية قديمة أعدت سنة 1930 تخليدا لذكرى حفل تكريم الطاهر الحداد بقاعة « كازينو البلفدير » بعد صدور كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » • ويومئذ عاق المرض أبا القاسم الشابى عن الحضور فى قاعة الاحتفال وكان إذذاك يصارع داء تضخم القلب وقد حرم عليه الطبيب النشاط الفكرى لكن الشابى أبى إلا أن يشارك المحتفلين بصديقه

الحد'د مشاركة قلبية وعبر عن تأييده لاراء الحداد الخاصة بترقية المرأة فى كلمة اعتذار قرئت غيابيا أثناء الحفلة • وهذا نموذج من الكتابات المناصرة للمصلح التونسى ذكر كشاهد على يقظة النخبة الحية من شباب تونس فى الثلث الأول لهذا القرن •

وكما أن الباحث يستطيع تبين قرابة فكرية بين تلك النخبة المفكـرة من التونسيين أنصار الجديد عصرئذ وبين الطاهر الحداد ، كـذلك يمكنه تبين مدى الاختلاف والتنافر بين آراء ومواقف هذا المصلح الثورية السابقة لأوانها بربع قرن وبين آراء وأعمـال المتـزمتين المحـافظين على القـديم المتمسكين بالموروث القابعين فى ظلمات عصور الركود زمنئذ فى تونس • وقد اخترت نموذجا من الردود على كتاب « امـرأتنا فى الشـريعة والمجتمع » كشاهد على وجهة نظر الفئة الجامدة من التونسيين الذين قاوموا الطـاهر الحـداد أشد ما تكون المقاومة عندما جهر ــ منذ ربـع قـرن ــ بآرائه الحية فى ميدان إصلاح القضاء والأحوال الشخصية • وهذا النموذج متمثل فى رسالة « سيف الحـق على من لا يرى الحق » لعمر البرى المدنى •

طبعت هذه الرسالة فى تونس سنة 1931 بعد سنـة من صـدور كتـاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » للطاهر الحداد وتقع فى ثلاث وستين صفحة• وليس من الصعب تبين أن مؤلفها عمر البرى المدنى استوحى عنوانها من مطلع قصيد أبى تمام » فتح عمورية « • وإن تأثره بقصيد الطائى ظهر بخاصة فى مطولته الشعرية « نفثة مصدور » الملحقة بالرسالة المذكورة • وقد صادقت « النظارة العلمية » لجامع الزيتونة التى كان عمر البرى المدنى يأتمر بأوامرها على طبع الرسالة كما تشهد بذلك الأختام المرسومة على الصفحة الأولى وهى لأحمد بيرم ومحمد الطاهر ابن عاشور ومحمد الطيب بيرم وصالح المالقى •

وذكر الشيخ راجح ابراهيم ــ وهو أحد خصوم الطاهر الحداد ــ فى ترجمة عمر البرى المدنى أنه تعرف به فى تونس العاصمة عندما قدم عمر البرى من بلاد المشرق ونزل بدار محمد محيـى الـدين القليبـى مـدير الحـزب الحـر الدستورى القديم • ولا يستبعد أن يكون هذا السياسى وشيـوخ النظـارة الذين كانوا يحتكرون الدين ويعتبرون أنفسهم سدنته هم الذين أشاروا على الشيخ البرى بتأليف رسالة للرد على كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » فلبى رغبة حماته وأولى نعمته • وأفاد الشيخ راجح ابراهيم قارىء الرسالة بأن عمر البرى المدنى كان « حاد الطبع عصبى المزاج سريع الأوهام والظنون » ثم اعتذر لمترجمه بقوله : « وهذا الطبع غالب على الأدباء » • وإن حدة طبعه ولسانه هى التى ــ فى نظرنا ــ أطلقت قلمـه فى رسـالته بمحض السبـاب وسخيف تلحيد الحداد فى غير ما موضـع وهذا انحـراف عن منهـاج النقـد الصحيـح •

وتتلخص الرسالة فى النقط التالية :

1) المرأة ـ خلافا لما يراه الحداد ـ لا تساوى الرجل فى الأعمال والحقوق وخاصة فى النيابة البرلمانية حسب عمر البرى المدنى ٠

2) يجوز الطاهر الحداد تولى المرأة القضاء ولذلك يبيح لها أن تبرز سافرة بعد أن تتزود بالمعرفة وهذا لا يراه عمر البرى المدنى الذى لا يبيح للبنت إلا التعليم مع الصون والحجب ٠

3) إن الأحكام الشرعية العرضية المتصلة بالأحوال الشخصية التى لا تمس جوهر التوحيد قابلة للتطور ـ حسب الحداد ـ والصدع بذلك إلحاد فى نظر عمر البرى المدنى ٠

4) الرأى عند عمر البرى أن عقل المرأة دون عقل الرجل فى القوة خلافا لما يذهب إليه الحداد ٠

5) يقول الحداد : « إن الاسلام لا يمانع فى تقرير المساواة بين الرجل والمرأة من كامل وجوهها متى توفرت الوسائل الموجبة » والجهر بذلك جنون ومروق من الدين فى نظر عمر البرى المدنى ٠

6) الرأى عند الحداد أن تعدد الزوجات سيئة من سيئات الجاهلية التى جاهدها الاسلام طبق سياسة تدريجية ويعارضه مناقضه بقوله : « إن التعدد حسنة من حسنات الاسلام » ويرميه بالكفر ٠

7) ليس تعدد أزواج النبى فى نظر الحداد تشريعا لأمته كترغيب لها فيه وإنما كان ذلك قبل التحديد وإن هذا التعدد ـ حسب ما ورد فى رد عمر البرى على خصمه ـ قد يكون ترغيبا للأمة فيه ٠

8) يكفر عمر البرى المدنى الطاهر الحداد مرة أخرى عندما يكتب فى موضوع أزواج الرسول : « لو فارق بعض نسائه لعرضهن للحرمان من الحياة الزوجية ودفع بهن فى هوة الفساد إذ لا يحل لمسلم تزوجهن بعده » ويتهجم على مؤلف كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » لمناهضته عملية تحليل الزوجة المطلقة بالتياس ويناهض فكرة إنشاء محاكم الطلاق التى جهر بها خصمه ٠

ويختم عمر البرى المدنى رسالته «سيف الحق على من لا يرى الحق» بمطولة شعرية تبلغ مائة وتسعة عشر بيتا عنوانها «نفثة مصدور» وهو عنوان معبر عن حالة نفسية فى الشاعر الممتلىء غيظا على الطاهر الحداد مؤلف كتاب «امرأتنا فى الشـريعة والمجتمـع » ٠ ففى مطولته الشعرية يتنفس عن غيظه وعن مكبوتاته ويفرغ جام نقمته على المصلح الثورى ويطلق لسانه بشتى أنواع السباب والتعيير والتلحيد فى نظم منسوج على منوال قصيد أبى تمام بعنوان « فتح عمورية » متقيد ببحره ورويه متضمن بيتين وأشطار أبيات منه ٠

ويستهل عمر البرى المدنى قصيدته « نفثة مصدور » بذكر الأسباب التى من أجلها قدم الى تونس وهى طلب العلم والأدب واكتساب دور بطولى وطلب الرزق · ثم ينتقل الى مناجاة جامع الزيتونة ويدعوه الى البكاء على الدين المنتهك ويطعن خصمه الطاهر الحداد فى دينه وأصله ونسبه وأخلاقه وسلوكه · ويسترسل فى إطلاق قلمه بمحض السباب وقبيح التعبير ، ولا يتعفف فى هجاء طه حسين مؤلف كتاب « فى الأدب الجاهلى » الذى أثار أيضا ضجة كبرى عصرئذ ويحشر هذا الأديب المجدد مع الطاهر الحداد فى زمرة المارقين من الدين وأصحاب البدع · ثم يسهب فى مدح شيوخ النظارة العلمية لجامع الزيتونة ويعتبرهم سدنة هذا البيت وحماة الدين الذين لهم الحق وحدهم – مع رجال الدين – فى الخوض فى مسائله · وهاك مقتطفات من تلك المطولة الشعرية :

يا ويح تونس مما نابها أبدا … من قح أبنائها فى الأصل والنسب
من ذا يصادم تيار الظلال وقد … أساله قومنا من أنكد السحب
والسحب قد أنشئت من مصر يبعثها … ذاك « الأعيمى » بلا دين ولا أدب
لولا النظارة أردتنا الخسارة فى … جب الهلاك وساد الغش بالجلب
اف لمجتهدى ذا العصر إنهم … تهيؤوا لخراب الدين بالذهب

ومنها يقول مخاطبا خصمه الطاهر الحداد :

إخسا فما لك فى الاسلام يا لكع … (أصلا) نصيب فعانى الكفر بالنصب
يا ليت انى أصم بينهم أبدا … او ان سمعى متى يلغون فى حجب
او ليت انى جهول بالقراءة إذ … ارى صحائفهم ملأى من الكرب

هذا هو ملخص رسالة « سيف الحق على من لا يرى الحق » لعمر البرى المدنى وهى إن دلت على شىء فعلى تزمت صاحبها ومن كان ينطق باسمهم وعلى انحراف نقده لآراء الحداد الثورية الحية عن منهاج النقد الصحيح وعن الموضوعية فى مناقشة الرأى · وإن هذه الرسالة – على غرار كتاب « الحداد على امرأة الحداد » للشيخ محمد الصالح بن مراد وعديد من الردود على نصير المرأة التونسى الطاهر الحداد – لتكشف عن اتجاه فى النقد منقلب محض سباب وتعيير وعن موقف متصلب فى مناهضة تطوير المرأة والمجتمع التونسى فى الثلث الأول لهذا القرن ·

فان هذا الناقد المتمسك بالتقاليد المناصر للقديم الرافض لكل تجديد يسلك فى جل أبواب رسالته وفصولها وفى مطولته الشعرية طريقة نقدية شعورية تهدف الى نسف ما شيده الطاهر الحداد المصلح الثورى المجدد فى مجال القضاء والأحوال الشخصية من نظريات وآراء جديدة جهر بها فى كتابه

« امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » وهى لعمرى نظريات وآراء منحرفة عن مألوف تقاليد التونسيين والمسلمين بعامة إذاك فى أحوالهم الشخصية التى توارثوها جيلا بعد جيل . وهكذا تدخل رسالة عمر البرى المدنى وكتاب الطاهر الحداد ضمن الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد فى الميدانين الدينى والاجتماعى بله الميدان الأدبى كما يتضح ذلك بخاصة من خلال المطولة الشعرية الآنفة الذكر . وهكذا تتصف هذه الكتابات بكونها حجاجية (Polémique) .

احمد خالد

الفكر

مؤسسها ومديرها المسؤول :

محمد مزالي

رئيس التحرير :

البشير بن سلامة

مقدمة في الشعر الملحون

ـ 13 ـ

بقلم : عبد المجيد بنجدو

إن العمل من اجل اقرار وضع علمي أو أدبي يبدو لاول وهلة أمرا شاقا يتطلب الكثير من الصبر وطول النفس ، لانه لا يكفى فى تاريخ الاداب والعلوم الكلامية ، الاطار الزمنى وحده ، ولا الذوات الذين برزوا فى هذا الفن أو ذاك ، بل يجب ان يضبط الفن ذاته وان يبوب وتشرح خفاياه وحدوده وبذلك فقط يمكن الابقاء عليه وتدوينه واعطاؤه امكانيات البقاء وتسجيله فى صفحات التاريخ إلى جانب العلوم والفنون الانسانية الاخرى ٠ ومن أجل هذا نلاحظ أن بعض المستشرقين من علماء عصرنا قد أسدوا إلى بعض العلوم العربية جميلا فهم يغوصون على اسرارها شرحا وبحثا ودرسا ويعنون بها عناية ويعطونها من أوقاتهم وأعمارهم اكثر مما يعطيه العرب انفسهم ، ويعنون بها عناية قلما نجد لها مثيلا عند العرب والامم الاسلامية التى تهمها هذه العلوم بالدرجة الاولى لارتباطها ارتباطا عقائديا وتاريخيا ودينيا بالامة العربية ، ولا يمكن ان يكون مرجع هذا إلى حماس المستشرقين للفنون العربية واستهانتنا نحن العرب بها ٠ بل مرجع كل هذا إلى طموح علمي وحب فى المعرفة على وجهها الصحيح ، ونحن ما زلنا لم نتزود من هذا الطموح بالقدر الذى نحتاجه لبناء نهضتنا الحديثة وان الطريق التى ينتهجها بعض المستشرقين اليوم نحو علوم العربية وفنونها هى الطريق ذاتها التى انتهجها اجدادنا من قبل فى اول عصر النهضة الاسلامية العربية ، وهى طريق البحث والاستقراء ، ولقد استطاع العرب القدامى بانتهاجهم هذه السبيل ان يدونوا علوم العربية ، والتشريع والفلسفة واللغة والرياضيات ، وانطلقوا فى هذه العلوم الانسانية كلها من الصفر ، ونقلوا علوم الهندسة والحساب ، وتخطيط البلدان وغير ذلك ، أخذوا هذه العلوم وتفاعلوا معها وأعطوها الكثير من نبوغهم وعبقرياتهم ، وأضافوا إليها من تجاربهم ومواهبهم ما جعل هذه العلوم تكبر وتتسع ، وبذلك استطاع العرب فى فترة ما من تاريخهم ان يكونوا عن جداره واستحقاق رسل حضارة ، وحملة مشاعل ، وصلة وصل بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة التى نعيشها اليوم ٠ فقد عملوا الكثير حتى اتسع الافق العلمي واصبح له ابعاد أعان العلماء العرب على افتراضها وكشف البعض منها واعطوا هذه العلوم المناعة ، والحيوية التى جعلتها تصلح لتكون اساسا لكل عمل جديد ، ذلك لانهم أدركوا انه لا يمكن لاى كان ان يغوص على الحقيقة مجردة

مقدمة في الشعر الملحون

— 13 —

بقلم : عبد المجيد بنجدو

إن العمل من اجل اقرار وضع علمي أو أدبي يبدو لاول وهلة أمرا شاقا يتطلب الكثير من الصبر وطول النفس ، لانه لا يكفي في تاريخ الاداب والعلوم الكلامية ، الاطار الزمني وحده ، ولا الذوات الذين بـرزوا في هذا الفـن أو ذاك ، بل يجب ان يضبط الفن ذاته وان يبوب وتشرح خفاياه وحدوده وبذلك فقط يمكن الابقاء عليه وتدوينه واعطاؤه امكانيات البقاء وتسجيله في صفحات التاريخ إلى جانب العلوم والفنون الانسانية الاخرى • ومن أجل هذا نلاحظ أن بعض المستشرقين من علماء عصرنا قد أسدوا إلى بعض العلوم العربية جميلا فهم يغوصون على اسرارها شرحا وبحثا ودرسا ويعنون بها عناية ويعطونها من أوقاتهم وأعمارهم اكثر مما يعطيه العرب انفسهم ، ويعنون بها عناية قلما نجد لها مثيلا عند العرب والامم الاسلامية التي تهمها هذه العلـوم بالدرجة الاولى لارتباطها ارتباطا عقائديا وتاريخيا ودينيا بالامة العربية ، ولا يمكن ان يكون مرجع هذا إلى حماس المستشرقين للفنون العـربية واستهانتنا نحن العـرب بها • بل مرجع كل هذا إلى طموح علمي وحب في المعرفة على وجهها الصحيح ، ونحن ما زلنا لم نتزود من هذا الطموح بالقدر الذى نحتاجه لبنـاء نهضتنـا الحديثة وان الطريق التي ينتهجها بعض المستشرقين اليوم نحو علوم العربية وفنونها هي الطريق ذاتها التي انتهجها اجدادنا من قبل في اول عصر النهضة الاسلامية العربية ، وهي طريق البحث والاستقراء ، ولقد استطـاع العـرب القدامى بانتهاجهم هذه السبيل ان يدونوا علوم العربية ، والتشريع والفلسفة واللغة والرياضيات ، وانطلقوا في هذه العلوم الانسانية كلها من الصفـر ، ونقلوا علوم الهندسة والحساب ، وتخطيط البلدان وغير ذلك ، أخـذوا هذه العلوم وتفاعلوا معها وأعطوها الكثير من نبوغهم وعبقرياتهم ، وأضافوا إليها من تجاربهم ومواهبهم ما جعل هذه العلوم تكبر وتتسع ، وبذلك استطـاع العرب في فترة ما من تاريخهم ان يكونـوا عن جـداره واستحقـاق رسـل حضارة ، وحملة مشاعل ، وصلة وصل بين الحضـارات القديمة والحضـارة الحديثة التي نعيشها اليوم • فقد عملـوا الكثير حتى اتسـع الافـق العلمي واصبح له ابعاد أعان العلماء العرب على افتراضها وكشف البعض منها واعطوا هذه العلوم المناعة ، والحيوية التي جعلتها تصلح لتكون اساسـا لكل عمـل جديد ، ذلك لانهم أدركوا انه لا يمكن لاى كان ان يغوص على الحقيقة مجردة

دون ان ينظر إلى جذورها ووأصولها ودون ان يرجعها إلى وحداتها واجزائها • فتركوا الكليات ، واهملوا المركبات وعنوا بالجزئيات ونظروا فى ذرات الاشياء فكان لهم من عملهم هذا ما أرادوا ، واستطاعوا بذلك ان يخدموا حضارتهم التى هى حضارة الانسان ، وان اى عمل يقوم به الفرد او الجماعة مهما كان ، وفى اى اطار قومى او قبلى كان لا بد ان يفيد منه الانسان فى النهاية ، وانه ليس شيء إكثر فائدة واجدى على البشر من ان ينظر المرء الى الاشياء نظرة جد وتأمل واستغراق ثم ينتقد ويحلل ويفكك الاشياء الى عناصرها الاولية والى هيولاها الاصلية • وبذلك يمكنه ان يدرس نشأة الاشياء ويحاول ان يضعها فى اطارها الطبيعى دون تهور او ادعاء او مبالغة لان المبالغات هى التراخوم الذى يطمس عين النفس ويعميها ولعمرى إن مثل هذه النظرة هى التى تعين الدارس وتاخذ بيد الباحث وتساعده على الوصول الى الحقائق ومواجهتها ، وانه لو توفرت للعرب وللمسلمين فى العصر الحاضر هذه الذهنية العلمية وهذا الطموح العرفانى لاستطاعوا ان يتخلصوا من مظاهر التخلف والانحلال ، ومن ارث علمى وعمرانى لم يعد بامكانه اعطاءنا المكانة التى نطلبها منه فى هذا العصر الذرى الرهيب •

فان الدراسات ، والعلوم على اختلاف مناهجها وانواعها ، والفنون هى أساس التقدم الانسانى ومظهر من مظاهره كان ذلك فى اية امة من الامم ، وان من شأن هذه العلوم مهما تباينت ضمان بقاء العنصر البشرى وتغلبه ، ولذلك كان علينا نحن التونسيين ان ننظر الى آثارنا الفنية بوصفها اولا اثرا إنسانيا وثانيا اثرا قوميا ، والى العلوم القلانية عندنا نظرة علمية تمكننا من ان نجعل من هذه الآثار الفنية منطلقا ننطلق منه الى نهضة قادمة نهضة نطلبها لاجيالنا الزاحفة ونرضاها • وان نستعين بالطرق العصرية فى البحث وحتى بالطرق التى انتهجها العرب فى عهد نهضتهم الاولى حتى نصل بعد كل ذلك الغاية التى نصبو اليها • وحتى نتمكن من ان نعدل بعض أراء المستشرقين فى علومنا وفى فنوننا تلك الاراء التى قد تصيب احيانا وقد تنحرف احيانا اخرى عن واقعنا الادبى والفكرى والفنى ، وبذلك نتمكن من ان نصحح وضعنا التاريخى وندخل مع هؤلاء العلماء فى حوار قد يطلبونه منا سعيا منهم وراء الحقيقة العلمية ، وقد يعينهم على تغيير وجهة نظرهم بما يتلاءم مع شجاعتنا وما نتمتع به من خصال يريد ان ينزعها منا خصومنا لاغراض قد يكون من بينها تزييف التاريخ ونحن اذا ما دخلنا هذا الحوار العلمى بجد واخلاص وتجرد واحترام نكون قد أعنا الباحثين وملنا بهم الى انصافنا واعطائنا ما نستحقه من تقديرهم وتقدير الآخرين ، وهم بعد ذلك لا يترددون فى منحنا المكانة التاريخية التى نستحقها ولست اقصد من هذه المكانة غير المكانة الحضرية دون زيادة او نقصان ، ودون نية مسبقة فى الغش او التزييف •

ومن اجل هذه الاسباب كلها قمت بهذا العمل المتواضع لأسجل فى كتاب التاريخ مظهرا من مظاهر حضارتنا فى تونس وهو المظهر الفنى الانسانى ،

دون ان ينظر إلى جذورها ووأصولها ودون ان يرجعها إلى وحداتها واجزائها • فتركوا الكليات ، واهملوا المركبات وعنوا بالجزئيات ونظروا فى ذرات الاشياء فكان لهم من عملهم هذا ما أرادوا ، واستطاعوا بذلك ان يخدموا حضارتهم التى هى حضارة الانسان ، وان اى عمل يقوم به الفرد او الجماعة مهما كان ، وفى اى اطار قومى او قبلى كان لا بد ان يفيد منه الانسان فى النهاية ، وانه ليس شيء اكثر فائدة واجدى على البشر من ان ينظر المرء الى الاشياء نظرة جد وتأمل واستغراق ثم ينتقد ويحلل ويفكك الاشياء الى عناصرها الاولية والى هيولاها الاصلية • وبذلك يمكنه ان يدرس نشأة الاشياء ويحاول ان يضعها فى اطارها الطبيعى دون تهور او ادعاء او مبالغة لان المبالغات هى التراخوم الذى يطمس عين النفس ويعميها ولعمرى إن مثل هذه النظرة هى التى تعين الدارس وتاخذ بيد الباحث وتساعده على الوصول الى الحقائق ومواجهتها ، وانه لو توفرت للعرب وللمسلمين فى العصر الحاضر هذه الذهنية العلمية وهذا الطموح العرفانى لاستطاعوا ان يتخلصوا من مظاهر التخلف والانحلال ، ومن ارث علمى وعمرانى لم يعد بامكانه اعطاءنا المكانة التى نطلبها منه فى هذا العصر الذرى الرهيب •

فان الدراسات ، والعلوم على اختلاف مناهجها وانواعها ، والفنون هى أساس التقدم الانسانى ومظهر من مظاهره كان ذلك فى اية امة من الامم ، وان من شأن هذه العلوم مهما تباينت ضمان بقاء العنصر البشرى وتغلبه ، ولذلك كان علينا نحن التونسيين ان ننظر الى آثارنا الفنية بوصفها اولا اثرا إنسانيا وثانيا اثرا قوميا ، والى العلوم القلانية عندنا نظرة علمية تمكننا من ان نجعل من هذه الآثار الفنية منطلقا ننطلق منه الى نهضة قادمة نهضة نطلبها لأجيالنا الزاحفة ونرضاها • وان نستعين بالطرق العصرية فى البحث وحتى بالطرق التى انتهجها العرب فى عهد نهضتهم الاولى حتى نصل بعد كل ذلك الغاية التى نصبو اليها • وحتى نتمكن من ان نعدل بعض أراء المستشرقين فى علومنا وفى فنوننا تلك الاراء التى قد تصيب احيانا وقد تنحرف احيانا اخرى عن واقعنا الادبى والفكرى والفنى ، وبذلك نتمكن من ان نصحح وضعنا التاريخى وندخل مع هؤلاء العلماء فى حوار قد يطلبونه منا سعيا منهم وراء الحقيقة العلمية ، وقد يعينهم على تغيير وجهة نظرهم بما يتلاءم مع شجاعتنا وما نتمتع به من خصال يريد ان ينزعها منا خصومنا لاغراض قد يكون من بينها تزييف التاريخ ونحن اذا ما دخلنا هذا الحوار العلمى بجد واخلاص وتجرد واحترام نكون قد أعنا الباحثين وملنا بهم الى انصافنا واعطائنا ما نستحقه من تقديرهم وتقدير الآخرين ، وهم بعد ذلك لا يترددون فى منحنا المكانة التاريخية التى نستحقها ولست اقصد من هذه المكانة غير المكانة الحضرية دون زيادة او نقصان ، ودون نية مسبقة فى الغش او التزييف •

ومن اجل هذه الاسباب كلها قمت بهذا العمل المتواضع لأسجل فى كتاب التاريخ مظهرا من مظاهر حضارتنا فى تونس وهو المظهر الفنى الانسانى ،

ومن هذا المظهر الفنى الشعر وبذلك فقط تتمكن الاجيال القادمة من العثور على صورة حية فى حاضر واحد من حاضرنا هذا الثرى الذى نعيشه ونحسه. ويتلخص هذا العمل فى كتابة مقدمة حول صناعة الشعر الملحون كما يسميه بعضهم او الشعر الشعبى كما اسميه انا فى هذه المقدمة وكنت اشرت فى اول هذه الدراسة الى الغرض من كتابة هذه المقدمة ، والى تبويبها . فتحدثت فيها عن الشعر العربى او الشعر الفصيح عند من يقصرون الفصاحة على العربية وحدها دون لغات الامم الاخرى . وصنفت هذا البحث وقسمته الى قسمين : قسم درست فيه المفرد الايقاعى فى الشعر العربى والقسم الثانى حاولت فيه الكشف عن المفرد الايقاعى فى الشعر الشعبى ، لكى يمكن للدارس ان يقارن بين الشعرين وان يضع عينه على نقاط الالتقاء والافتراق ولا يمكننا ان نحكم لهذا الشعر او ذاك ، ولا ان نجعل الشعر الشعبى شعرا عربيا ملحونا محرفا عن العربية الا متى قدمنا لهذا الشعر أو ذاك ، عند ذلك يمكن ان نحكم ، وان نفترض ، وان نعطى آراء تكشف وجه الصواب ، وتكون فى الآن نفسه واضحة موفية بالغرض وانتهينا فى مقدمتنا هذه الى تقرير مفردات ايقاعية للشعر الشعبى وقابلناها او على الاقل مكنا الباحث من أن يقابلها بالمفردات الايقاعية للشعر العربى الفصيح ، ولم نقتنع فى الشعر العربى الفصيح بالفكرة القائلة : ليس فى الامكان احسن مما كان ـ بل حاولنا ان نفهم اغراض الخليل بن أحمد الفراهيدى ومن ان نوجه له بعض الاسئلة وان نضع أمام مصطلحاته نقطا للاستفهام ، ولكى تدخل هذا الفن الحيوية يجب ان نستأنف الحوار مع من سبقنا حتى تنمو المواهب العربية ، وحتى نوجد ضربا من النقد البناء حتى لا تكون احكامنا احكاما تعسفية تلقائية واعمالنا اعمالا مجانية فى الوقت ذاته بل تكون احكاما ترجع الى مبررات ومستندات ثابتة تدخل تحت طائلة المعادلات المضبوطة التى يبعد ان تخطىء ، وركزنا هذا البحث على الاستقراء والتتبع وهو عمل سبقنا اليه الدارسون والباحثون من قبل واحلوه لانفسهم فلم نحرمه على انفسنا ، كما ركزنا هذا العمل الاستقرائى فى الشعر الشعبى على الحس الادبى ، وهو امر قد يحرم منه بعض الدارسين ان لم يكونوا من ابناء هذا الوطن ولم يعيشوا حياتهم على أرض كنا عشنا حياتها وأحسسنا بها فى جميع مراحل حياتنا التى عشناها عليها والحس الادبى حسان حس عام وحس خاص ، فالحس العام تسلط اصداؤه على المقاصد وتغيرها والحس الخاص هو الحس الاهلى الذى يضبط المميزات القوميية لاى فن من الفنون .

ولقد شرعنا فعلا فى درس المفردات الايقاعية للشعر الشعبى وأهم شىء كشفنا عنه فى هذه المفردات هو اقتصارها اولا على الاسباب الخفيفة دون سواها ثم الاسباب المضاعفة وهى اسباب لا توجد فى حشو البيت العربى وقد كنا اشرنا الى ذلك فى رسالة ماضية ، ودفعنا ذلك الى الشك فى بعض الصيغ العربية من مثل اسم الفاعل من المضاعف : كحاد ـ وشاب ـ وجاد .

ومن هذا المظهر الفنى الشعر وبذلك فقط تتمكن الاجيال القادمة من العثور على صورة حية فى حاضر واحد من حاضرنا هذا الثرى الذى نعيشه ونحسه. ويتلخص هذا العمل فى كتابة مقدمة حول صناعة الشعر الملحون كما يسميه بعضهم او الشعر الشعبى كما اسميه انا فى هذه المقدمة وكنت اشرت فى اول هذه الدراسة الى الغرض من كتابة هذه المقدمة ، والى تبويبها . فتحدثت فيها عن الشعر العربى او الشعر الفصيح عند من يقصرون الفصاحة على العربية وحدها دون لغات الامم الاخرى . وصنفت هذا البحث وقسمته الى قسمين : قسم درست فيه المفرد الايقاعى فى الشعر العربى والقسم الثانى حاولت فيه الكشف عن المفرد الايقاعى فى الشعر الشعبى ، لكى يمكن للدارس ان يقارن بين الشعرين وان يضع عينه على نقاط الالتقاء والافتراق ولا يمكننا ان نحكم لهذا الشعر او ذاك ، ولا ان نجعل الشعر الشعبى شعرا عربيا ملحونا محرفا عن العربية الا متى قدمنا لهذا الشعر أو ذاك ، عند ذلك يمكن ان نحكم ، وان نفترض ، وان نعطى آراء تكشف وجه الصواب ، وتكون فى الآن نفسه واضحة موفية بالغرض وانتهينا فى مقدمتنا هذه الى تقرير مفردات ايقاعية للشعر الشعبى وقابلناها او على الاقل مكنا الباحث من أن يقابلها بالمفردات الايقاعية للشعر العربى الفصيح ، ولم نقتنع فى الشعر العربى الفصيح بالفكرة القائلة : ليس فى الامكان احسن مما كان - بل حاولنا ان نفهم اغراض الخليل بن أحمد الفراهيدى ومن ان نوجه له بعض الاسئلة وان نضع أمام مصطلحاته نقطا للاستفهام ، ولكى تدخل هذا الفن الحيوية يجب ان نستأنف الحوار مع من سبقنا حتى تنمو المواهب العربية ، وحتى نوجد ضربا من النقد البناء حتى لا تكون احكامنا احكاما تعسفية تلقائية واعمالنا اعمالا مجانية فى الوقت ذاته بل تكون احكاما ترجع الى مبررات ومستندات ثابتة تدخل تحت طائلة المعادلات المضبوطة التى يبعد ان تخطىء ، وركزنا هذا البحث على الاستقراء والتتبع وهو عمل سبقنا اليه الدارسون والباحثون من قبل واحلوه لانفسهم فلم نحرمه على انفسنا ، كما ركزنا هذا العمل الاستقرائى فى الشعر الشعبى على الحس الادبى ، وهو امر قد يحرم منه بعض الدارسين ان لم يكونوا من ابناء هذا الوطن ولم يعيشوا حياتهم على أرض كنا عشنا حياتها وأحسسنا بها فى جميع مراحل حياتنا التى عشناها عليها والحس الادبى حسان حس عام وحس خاص ، فالحس العام تسلط اصداؤه على المقاصد وتغيرها والحس الخاص هو الحس الاهلى الذى يضبط المميزات القومية لاى فن من الفنون .

ولقد شرعنا فعلا فى درس المفردات الايقاعية للشعر الشعبى وأهم شىء كشفنا عنه فى هذه المفردات هو اقتصارها اولا على الاسباب الخفيفة دون سواها ثم الاسباب المضاعفة وهى اسباب لا توجد فى حشو البيت العربى وقد كنا اشرنا الى ذلك فى رسالة ماضية ، ودفعنا ذلك الى الشك فى بعض الصيغ العربية من مثل اسم الفاعل من المضاعف : كحاد - وشاب - وجاد .

اذ لو كانت هذه الصيغ عربية لكانت فى حشو البيت العـربى واعتمـادا على المفردات الايقاعية للشعر الشعبى ، قدمنا وزنا من اوزان بحوره العديدة التى سنتعرض لها فى ابحاثنا المقبلة • ولكى نعطى هذا الـوزن حقـه من الدرس واعنى بذلك وزن البورجيلة كان علينا أن نبتدع له هنـدسة نصـورها حتى تقرب الى ذهن المتطلع الباحث •

قلنا ان وزن البورجيلة يمكن ان نفترض له التفعيلة الآتية :

وهى : فعـلان فـا فعـلان فعلـن فعلـن

أو : لا لا ن لا لا لا ن لا لا لا لا

وعندما نحلل البيت من البورجيلة الى مفرداته الايقاعية • نجدها على النحو التالى : اسباب خفيفة واسباب مضاعفة :

وصورة السبب الخفيف هى : (ـ ٥)

وصورة السبب المضاعف : (ـ ٥٥)

وشرحه بالمسافة الصوتية حسب المعادلة التى افترضتها السبب الخفيف خط صوتى ـ أشرت له بالباء والسين والنون •

اما الباء كما قد كنت اشرت اليه فى الرسالة الماضية فهو يشير الى نقطـة البداية فى المسافة الصوتية والسين الى مسافة مجهـولة بين نقطتى البـداية والنهاية ، واما نقطة النهاية فقد اشرنا اليها بحرف النون وبينا ان المسـافة الصوتية الواحدة تكون من متحرك وساكن وان المتحرك والساكن لا يعتبران صوتا مركبا بل صوتا مفردا •

وان هذا الصـوت يمكن ان يصـور على حـرفين (من حـروف الهجـاء) صحيحين ومثال ذلك :

(لـم) و (كـم) و (لـو) و (لـم) و (لـو) و (كـم)
كل منهما يساوى مسافة واحدة وهى مسافة : (ب س ن) |ــــــــــ|
ب س ن

ويمكن تصوير هذا الخط الصوتى على حرفين احدهما صحيح وثانيهما معتل بشرط او يكون حرف مد مثال ذلك : (ما) و (ذا) و (لا) واعتبار الحركة والسكون منفصلين خطأ وقع فيه بعض علماء العروض ، حتى فصلوا القبض على الطى وفرقـوا بين فعولن ومفاعيلن فى قبضهما وبين مستفعلن ومفعولات فى طيهما على اعتبار ان الساكن المحذوف فى فعولن يقع على حرف خامس وكذلك فى مفاعيلن والساكن المحذوف فى مستفعلن وفى مفعولات يقع

اذ لو كانت هذه الصيغ عربية لكانت فى حشو البيت العربى واعتمادا على المفردات الايقاعية للشعر الشعبى ، قدمنا وزنا من اوزان بحوره العديدة التى ستتعرض لها فى ابحاثنا المقبلة • ولكى نعطى هذا الوزن حقه من الدرس واعنى بذلك وزن البورجيلة كان علينا أن نبتدع له هندسة نصورها حتى تقرب الى ذهن المتطلع الباحث •

قلنا ان وزن البورجيلة يمكن ان نفترض له التفعيلة الآتية :

وهي : فعلان فا فعلان فعلن فعلن

أو : لا لا ن لا لا لا ن لا لا لا لا

وعندما نحلل البيت من البورجيلة الى مفرداته الايقاعية • نجدها على النحو التالى : اسباب خفيفة واسباب مضاعفة :

وصورة السبب الخفيف هي : (ـ ٥)

وصورة السبب المضاعف : (ـ ٥٥)

وشرحه بالمسافة الصوتية حسب المعادلة التى افترضتها السبب الخفيف خط صوتى ـ أشرت له بالباء والسين والنون •

اما الباء كما قد كنت اشرت اليه فى الرسالة الماضية فهو يشير الى نقطة البداية فى المسافة الصوتية والسين الى مسافة مجهولة بين نقطتى البداية والنهاية ، واما نقطة النهاية فقد اشرنا اليها بحرف النون وبينا ان المسافة الصوتية الواحدة تكون من متحرك وساكن وان المتحرك والساكن لا يعتبران صوتا مركبا بل صوتا مفردا •

وان هذا الصوت يمكن ان يصور على حرفين (من حروف الهجاء) صحيحين ومثال ذلك :

(لم) و (كم) و (لو) و (لم) و (لو) و (كم)
كل منهما يساوى مسافة واحدة وهى مسافة : (ب س ن) |ــــــــــ|
ب س ن

ويمكن تصوير هذا الخط الصوتى على حرفين احدهما صحيح وثانيهما معتل بشرط او يكون حرف مد مثال ذلك : (ما) و (ذا) و (لا) واعتبار الحركة والسكون منفصلين خطأ وقع فيه بعض علماء العروض ، حتى فصلوا القبض على الطى وفرقوا بين فعولن ومفاعيلن فى قبضهما وبين مستفعلن ومفعولات فى طيهما على اعتبار ان الساكن المحذوف فى فعولن يقع على حرف خامس وكذلك فى مفاعيلن والساكن المحذوف فى مستفعلن وفى مفعولات يقع

على الحرف الرابع بينما القبض والطى كما هو ظاهر يقع فى المفـرد الايقـاعى الثانى الذى السبب الخفيف الثـانى فى مستفعلن ومفعولات والسبب الخفيف الذى ورد ثانيا فى فعولن ومفاعيلن · وقد تكون هذه التسمية صحيحة وهذا التقسيم بين الطى والقبض وجيها لو اعتبر علماء العروض ان الوتد المجموع والفـاصلة الصغـرى والسبـب الثقيـل اسبـابـا خفيفـة مخبـونـة ويكون على هذا الاعتبار الوتـد المجمـوع عبـارة على سببين خفيفين اولهما مخبون وكذلك الفاصلة الصغرى عبارة على ثلاثة اسباب خفيفة اولها وثانيها سببان مخبونان والسبب الثقيل يكون سببان خفيفان دخلهما الخبن وكذلك يمكنك ان تقيس الفاصلة الكبرى باعتبارها اربعة اسباب خفيفة · ولقد اشار صاحب كتاب العمدة الى عالم من علماء العروض كان يلقب بالحمـار يرى ان الاوتاد والفواصل انما هى اسباب خفيفة دخلها الخبن ·

هذا من ناحية الاسبـاب الخفيفـة التى يشترك فيها المفـرد الايقـاعى فى الشعرين الشعبى التونسى والعربى الفصيح ·

اما الاسباب المضاعفة وهى عبارة على خطيـن سمعيين قطـع ثانيهمـا على الصورة الآتية :

(ب س ن) I + (ب س ن) 2 إلا (ب س) 2 = (ب س ن ن)

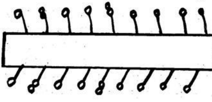
ومثاله فى الصوت : جـاى ـ قـام ـ شـاف ·

وكنا نبهنا الى ان مثل هذا السبب المضاعف يمكن ان يدخل عروض البيت ولكنه يدخل ضربه فى كل حالات الشعر العربى من قصيد مرسل وموشح ·

فالسبب المضاعف يدخل عروض الموشح فقط وهو عدا الموشح لا يدخل الا الضرب · اما حشو البيت العربى فان السبب المضاعف لا يدخله اطلاقا · وقد كنا نقلنا لكم فى الرسالة السالفة امثلة أوردها صاحب كتـاب العمـدة فليرجع اليها ·

ونعود الآن الى وزن البورجيلة ، ونقول : ان هذا الوزن يتركب مصراعاه من ثمانية عشر مفردا ايقاعيا ·

ترصف حتما على النحو التالى :



على الحرف الرابع بينما القبض والطى كما هو ظاهر يقع فى المفـرد الايقـاعى الثانى الذى السبب الخفيف الثـانى فى مستفعلن ومفعولات والسبب الخفيف الذى ورد ثانيا فى فعولن ومفاعيلن • وقد تكون هذه التسمية صحيحة وهذا التقسيم بين الطى والقبض وجيها لو اعتبر علماء العروض ان الوتد المجموع والفـاصلة الصغـرى والسبـب الثقيـل اسبـابـا خفيفـة مخبـونـة ويكون على هذا الاعتبار الوتـد المجمـوع عبـارة على سببين خفيفين اولهما مخبون وكذلك الفاصلة الصغرى عبارة على ثلاثة اسباب خفيفة اولها وثانيها سببان مخبونان والسبب الثقيل يكون سببان خفيفان دخلهما الخبن وكذلك يمكنك ان تقيس الفاصلة الكبرى باعتبارها اربعة اسباب خفيفة • ولقد اشار صاحب كتاب العمدة الى عالم من علماء العروض كان يلقب بالحمـار يرى ان الاوتاد والفواصل انما هى اسباب خفيفة دخلها الخبن •

هذا من ناحية الاسبـاب الخفيفـة التى يشترك فيها المفـرد الايقـاعى فى الشعرين الشعبى التونسى والعربى الفصيح •

اما الاسباب المضاعفة وهى عبارة على خطيـن سمعيين قطـع ثانيهمـا على الصورة الآتية :

(ب س ن) 1 + (ب س ن) 2 إلا (ب س) 2 = (ب س ن ن)

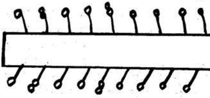
ومثاله فى الصوت : جـاى ـ قـام ـ شـاف •

وكنا نبهنا الى ان مثل هذا السبب المضاعف يمكن ان يدخل عروض البيت ولكنه يدخل ضربه فى كل حالات الشعر العربى من قصيد مرسل وموشح •

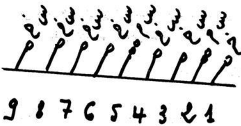
فالسبب المضاعف يدخل عروض الموشح فقط وهو عدا الموشح لا يدخل الا الضرب • اما حشو البيت العربى فان السبب المضاعف لا يدخله اطلاقا • وقد كنا نقلنا لكم فى الرسالة السالفة امثلة أوردها صاحب كتـاب العمـدة فليرجع اليها •

ونعود الآن الى وزن البورجيلة ، ونقول : ان هذا الوزن يتركب مصراعاه من ثمانية عشر مفردا ايقاعيا •

ترصف حتما على النحو التالى :



وقد راينا فى هذا التركيب ان المفرد الايقاعى الثانى والمفرد الايقاعى الخامس كانا مفردين مضاعفين ·



ومثاله فى النطق : نـادای ملبـراد وفنـاجيله ·

اما تقطيع البيت من حيث هو اسباب خفيفة ومضاعفة فهذا مثاله :

(نـا) (داى) (ملـ) (بر) (راد) (وف) (نـا) (جيـ) (له)

2 5

فنحن نلاحظ فى هذا المثال ان المقطع الثانى الذى هو (داى) والمقطع الخامس (راد) مقطعان مضاعفان ·

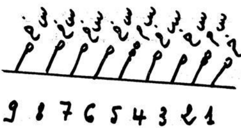
يتركب كل منهما من :

(ب س ن) I + (ب س ن) 2 − (ب س) 2 = (ب س ن ن)

وان اى اختلال يدخل على هذا الترصيف يدخل الاضطراب على هذا البحر ويجعل الوزن غير مستقيم فلا يجوز مضاعفة احد اسبابه الخفيفة الاولى والثالثة والرابعة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة كما لا يجوز تخفيف اسبابه المضاعفة وهما السببان الثانى والخامس ، وهكذا نرى كيف يستقيم احد اوزان الشعر الشعبى وهو وزن البورجيلة ولهذا الوزن فروع نتحدث عنها فى الرسالة القادمة ·

عبد المجيد بنجدو

وقد راينا فى هذا التركيب ان المفرد الايقاعى الثانى والمفرد الايقاعى الخامس كانا مفردين مضاعفين .



ومثاله فى النطق : نادای ملبراد وفناجيله .

اما تقطيع البيت من حيث هو اسباب خفيفة ومضاعفة فهذا مثاله :

(نا) (داى) (ملـ) (بر) (راد) (وف) (نا) (جيـ) (له)

2 5

فنحن نلاحظ فى هذا المثال ان المقطع الثانى الذى هو (داى) والمقطع الخامس (راد) مقطعان مضاعفان .

يتركب كل منهما من :

(ب س ن) I + (ب س ن) 2 – (ب س) 2 = (ب س ن ن)

وان اى اختلال يدخل على هذا الترصيف يدخل الاضطراب على هذا البحر ويجعل الوزن غير مستقيم فلا يجوز مضاعفة احد اسبابه الخفيفة الاولى والثالثة والرابعة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة كما لا يجوز تخفيف اسبابه المضاعفة وهما السببان الثانى والخامس ، وهكذا نرى كيف يستقيم احد اوزان الشعر الشعبى وهو وزن البورجيلة ولهذا الوزن فروع نتحدث عنها فى الرسالة القادمة .

عبد المجيد بنجدو

سير الحركة الفكرية بالساحل

على عهد الامام الاكبر أبى عبد الله محمد المازرى
دفين المنستير المتوفى سنة 536 هـ

بقلم : محمد الهادى العامرى

ولد الامام الاكبر ابو عبد الله بن على بن عمر محمد التميمي المازرى ، الفقيه المالكى المحدث فى اوائل النصف الثانى من القرن الخامس للهجرة ، ونسبه الى (التميمية) تثبت انه من سلالة القبيلة العربية العظيمة الذائعة الصيت فى تاريخ العرب التى انحدر الكثير من ابنائها الى افريقية وانتشروا يشبه جزيرة الاندلس وبصقلية ٠ وقد لعب افراد هذه القبيلة ادوارا هامة فى تاريخ افريقية فى سائر الميادين لا سيما الميدان السياسى ٠ فقد تكونت منهم الدولة الاغلبية التى اسسها ابراهيم بن الاغلب بن سالم بن خفاجة التميمى ، وكان الاغلب قدم مع جيوش المسودة (اى الجيش العباسى) فى صحبة محمد ابن الاشعث وهو من رجال الثورة على الامويين ، وقد ازدهرت افريقية على عهودهم وارتقت وأنفقت من كل زوج بهيج ، واشتهر بنو تميم هؤلاء بالنشاط والحزم والقيام بجلائل الاعمال مع التفكير البعيد المدى والاقبال على الفنون والاداب ٠

ونسبة هذا النابغ الى مازرة تبين ان اسلافه كانوا يقطنون بها وهذه المدينة اى مازرة كانت من المدن الآهلة بالمسلمين لانها اول ما افتتحه اسد بن الفرات من جزيرة صقلية فى الحملة التى ارسلها زيادة الله الاول الاغلبى فى سنة 212 هـ٠ وقد عرف الادريسى اكبر جغرافى العرب فى تلكم العهود بمازرة فقال : « مازرة مدينة فاضلة شامخة لا شبيه لها ولا مثيل فى شرف المحل والحال ، واليها الانتهاء فى جمال الهيئة والبناء وما اجتمع فيها من المحاسن التى لم تجتمع فى غيرها من المواطن » الى آخر ما وصفها به الادريسى من الاوصاف الرائعة ٠

وقد كان بنو تميم آخر المقاومين للنرمان عند الجلاء ولا ندرى اين ولد أبو عبد الله المازرى لان المصادر التى بين ايدينا لم تشر الى ذلك وعلى كل فقد ولد المازرى بعد زوال الحكم الاسلامى من صقلية ٠ وبقى المسلمون هناك تحت رحمة النرمان وغيرهم ، يسومونهم خسفا ويتظاهرون بمجاملتهم ويستفيدون من جهودهم وتفكيرهم ونظامهم وينتفعون بمواهب علمائهم ، وقد اشار الى ذلك الكاتب الفرنسى الشهير غوسطاف لبون فى كتابه حضارة

العرب فقال : « والنورمان هم الذين قضوا على سلطان العـرب السياسى فى صقلية فى القرن الحادى عشر للميـلاد ، وبقى العـرب بعـد زوال سيـادتهم يقومون برسالتهم الثقافية فيها كبير وقت فكان لملوك النرمان من الذكـاء ما استطاعوا به ان يدركوا تفوق العرب العظيم فاستندوا اليهم وظل نفوذ اتباع الرسول فى ايامهم بالغا » ٠ واضاف الى قوله المتقدم الكلمة الآتية : « وكانت حضارة العرب زاهرة فى صقلية حين فتحها النرمان فادرك روجار وخلفـاؤه افضلية اتباع النبى العربى فانتحلوا نظمهـم وشملـوهم برعـايتهم فتمتعت صقلية برخاء دام الى ان قبض ملوك آخرون على زمامها فى سنة 1194 م٠ فاجلوا العرب عنها ٠

وقد شاهد الرحالة ابن جبير فى اواخر القرن الثانى عشر مسيحى وفى اواخر القرن السادس الهجرى الشىء الكثير مما تحدث به « جوسطاف لبون » وصور الحالة تصـويرا رائعـا مدققـا وقد جـاء فى احـاديثه ما يلى : « وزى النصرانيات فى هذه المدينة (يعنى مدينة نرمة) زى نساء المسلمين فصيحات الالسن ملتحفات متنقبات يلبسن ثياب الحرير المذهب ويلتحفن اللحف الرائقة ويتنقبن بالنقب الملونة وينتعلن الاخفاف المذهبة ويبرزن لكنائسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهـة الدعابة قول الشاعر :

ان من يدخـل الكنيسة يومـا   يلق فيهـا جـاذرا وظبـاء »

الى آخر ما تحدث به ابن جبير عن تهافت النرمان على تقليد المسلمين فى الصغيرة والكبيرة وحرصهم على استخدامهم فى سـائر الـدواوين ولا سيما داخل البلاط الملكى النرمانى وقد كانت النسوة المسلمات مبشرات بالاسلام هنـاك ٠

هذا ولم يعرج المؤرخون بشىء عن نشاة المازرى بالساحل او بمازرة وربما انتقل فى شرخ شبابه مع الرعيل الاول من اللاجئين ٠ والتـاريخ لا يثبت ، بالظن والاحتمال ، اما تعلمه العالى فقد اشير اليه وذكر مؤرخو سير العلماء من اساتذته أبا الحسن اللخمى الفقيه المـالكى دفين صفـاقس سنة 498 هـ٠ والاستاذ عبد الحميد الصائغ دفين ضواحى مدينة سوسة وما اليهما من كبار الائمة الاعلام فى المذهب المالكى الراسخ الدعـائم بافـريقية منذ ان اصـدر المعز بن باديس امره بالاقتصار على المذهب المالكى والغاء ما سواه من المذاهب والنحل بافريقية التونسية توحيدا للاتجاه بالاقتصار على مذهب واحد ٠

«الاختلال السياسى بافريقية وسير العلم والادب»

لم يؤثر الاختلال السياسى بافريقية ولا بالعراق ولا بالاندلس على سير العلوم والآداب فقد امتاز القرن الخامس الهجرى الذى ولد فى منتصفه عبقريان

بالمغرب والمشرق أبو حامد الغزالي بالمشرق وأبو عبد الله المازري بمازرة ثم بافريقية · امتاز هذا القرن بانه القرن الذي تم فيه انتشار سائر العلوم بين الامم الاسلامية واستبحرت فيه شعب الفلسفة الاسلامية ونما عدد الفلاسفة ونضجت فيه افانين التصوف وضروبه واتسعت دائرة الجدل وعظمت وكثرت مجالس المناظرات في كل مكان وتنوعت فيه فنون العلوم وارتقت اساليب البحث وحمي فيه وطيس معركة التفكير حيث الافكار حرة طليقة فالباطنيون يجاهرون بارائهم في فهم النصوص الشرعية حسب اهدافهم ومنكرو التكليف يحاولون ان ينشروا مبادئهم ويتساءلون عن الوسائل الموصلة لذلك فيخفقون ···

وقد لخص الامام المازري رايه في الغزالي وفي اساليب التفكير في هذا القرن فاثار بذلك خصومة عنيفة بين انصار الغزالي الذين اكبروا هجوم المازري وانضوا له بالرد في ذلك العهد واليكم راى المازري في الغزالي وآرائه ، قال المازري لمن سئل عن حال كتاب احياء علوم الدين والغزالي وآرائه ما يلي :

« اني وان لم اكن قرات كتاب احياء علوم الدين ولم اجتمع بالغزالي فقد رايت تلامذته واصحابه (يشير بذلك الى تردد العلماء والطلاب على مدرسة الغزالي والمازري) ثم يواصل حديثه فيقول فكل من تلاميذ الغزالي واصحابه يحكي لي نوعا من حاله وطريقته فاتلوح من مذهبه وسيرته ما قام لي مقام العيان » ·

وقال : « ان كتابه مزيج من مذاهب الموحدين والفلاسفة والمتصوفة واصحاب الاشارات فكتاب الاحياء متردد بين هذه الطرائق » واستمر يهاجم كتاب الاحياء ، وقال عن الغزالي : « هو اعرف بالفقه منه باصوله،واماعلم الكلام الذي هو اصول الدين فانه صنف فيه ايضا وليس بالمستبحر فيه ، ولقد فطنت لسبب عدم استبحاره وذلك انه قرأ علم الفلسفة قبل استبحاره في فن اصول الدين فاكسبته قراءة الفلسفة جرأة على المعاني وتسهيلا للهجوم على الحقائق لان الفلسفة تنمو مع خواطرها وليس لها حكم شرعي ترعاه ولا تخاف من مخالفة آئمة تتبعها · وعرفني بعض اصحابه انه كان عكوفا على رسائل اخوان الصفا وهي احدى وخمسون رسالة ومصنفها فيلسوف قد خاض في علم الشرع والعقل فمزج ما بين العلمين وذكر الفلسفة وحسنها في قلوب اهل الشرع بابيات يتلوها عندها واحاديث يذكرها ثم كان في هذا الزمان المتاخر رجل من الفلاسفة يعرف بابن سينا ملأ الدنيا تآليف في علم الفلسفة ، وقد ادته قوته في الفلسفة وهو فيها امام كبير الى ان حاول رد اصول العقائد الى علم الفلسفة وتلطف جهده حتى تم له ما لم يتم لغيره وقد رايت جملا من دواوينه ورايت هذا الغزالي يعول عليه في اكثر ما يشير اليه من الفلسفة » ·

ثم قال : « واما مذاهب الصوفية فلست ادرى على من عول فيها » · ثم اشار الى انه عول على أبي حيان التوحيدي ثم ذكر توهية اكثر ما في الاحياء من

الاحاديث النبوية ، وقال عادة المتورعين ان لا يقولوا قال مالك قال الشافعي فيما لم يثبت عندهم ثم اشار المازري الى ان الغزالي يستحسن اشياء وهمية مبناها على ما لا حقيقة له مثل قوله فى قص الاظافر ان تبدأ بالسبابة لان لها الفضل على بقية الاصابع لكونها المسبحة الى آخر ما ذكر من الكيفية قال المازري : « والاغرب من هذا انى قرأت له انه ذكر ان فى علومه ما لا يسوغ ان يودع فى كتاب فليت شعري احق هو او باطل ؟ فان كان باطلا فصدق وان حقا وهو مراده بلا شك فلم لا يودع فى الكتب الغموضة فان كان الامر كذلك فما هو المانع ان يفهمه عليه » ذلكم هو ملخص راى المازري فى الحركة العلمية التجديدية فى اواخر القرن الخامس ورايه هذا يرسل اضواء كاشفة على الحالة الفكرية المضطربة التى ذهب الناس فى ميادينها مذاهب شتى شان التجديد فى كل العصور • ومهما تجددت هذه الحركة الا اثارت حولها ضجة تنبعث عن المحبذين والمنتقدين خصوصا فى هذه الفترة التى واصل فيها المسلمون اهتمامهم بنقل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية فكان الناس يتهافتون على التشبع بهذه العلوم •

وقد ادى هذا التوسع الى دراسة قواعد الاسلام على اصول التفكير الجديد وهو ما اشار اليه المازري فى الحديث عن ابن سينا الذى قال عنه انه نجح اكثر من غيره فى هذا الميدان وهى المحاولة التى تجرى منذ القرون فى التوفيق بين الدين والعقل • وقد برهن اعلام من المسلمين على ان العقل له مكانته العظمى فى التشريع وغيره فقد قال أبو اسحاق الشاطبي وهو ابراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي المتوفى سنة 790 هـ فى كتابه الموافقات فى اصول الشريعة ما يلى : « الادلة الشرعية اى فى الاسلام لا تنافى قضايا العقول والدليل على ذلك من وجوه احدها انها لو نافتها لم تكن ادلة للعباد على حكم شرعي ولا غيره لكنها ادلة باتفاق العقلاء فدل انها جارية على قضايا العقول وبيان ذلك ان الادلة انما نصبت فى الشريعة لتتلقاها عقول المكلفين حتى يعملوا بمقتضاها من الدخول تحت احكام التكليف، ولو نافتها لم تتلقاها فضلا عن ان تعمل بمقتضاها وهذا معنى كونها خارجة عن حكم الادلة ، ويستوى فى هذا الادلة المنصوصة على الاحكام الآلهية ، وعلى الاحكام التكليفية والثانى انها لو نافتها لكان التكليف بمقتضاها بما لا يطاق وذلك من جهة التكليف بتصديق ما لا يصدقه العقل ولا يتصوره بل يتصور خلافه ويصدقه فاذا كان كذلك امتنع على العقل التصديق ضرورة ، وقد فرضنا ورود التكليف المنافى للتصديق ، وهو معنى تكليف لا يطاق وهو باطل حسبما هو مذكور فى الاصول •

والثالث ان مورد التكليف هو العقل وذلك ثابت قطعا بالاستقراء التام حتى اذا فقد ارتفع التكليف راسا وعد فاقده كالبهيمة المهملة وهذا واضح فى اعتبار تصديق العقل بالادلة فى لزوم التكليف على العاقل اشد من لزومه على المعتوه والصبي والنائم اذ لا عقل لهؤلاء يصدق او لا يصدق بخلاف العاقل

الذى ياتيه ما لا يمكن تصديقه ، ولما كان التكليف ساقطا عن هؤلاء لـزم ان يكون ساقطا عن العقلاء ايضا وذلك مناف لوضع الشريعة فكان ما يؤدى اليه باطـلا » ...

وقد ظلت افكار الغزالى فى عصره بالمغـرب محـل ريب لاول مرة حتى ان المرابطين حكام المغرب فى تلكم العهود احرقوا كتابه الاحياء بمراكش والواقع ان التصوف الاسلامى لم يتبوأ مكانته فى النفوس ولم تقبله الافكار وتطمئن اليه العقول الا بواسطة أبى حامد الغزالى الذى تجاهل الامام المازرى افكاره لانه لم يجتمع به وهو معاصر له والمعاصرة حجاب كما هو معروف . فالغـزالى فى الحقيقة اكبر عبقرى فى هذا العصر الذى يعيش فيه المازرى عبقرى المغرب لانه تمكن فى تآليفه القيمة من توضيح فلسفة الاسلام بطريقة مدهشة جذابة فاتنة بل هو الرجل الذى حارب طرق التفكير وحطمها وعرضها لنقد مرير قـاس وقف به على الشك الذى تطور فيما بعد الى وجدان صـوفى صـاف . فكان لاساليبه وبحوثه وكتبه ورقائقه وطلاوة تفكيره اعمق الاثر فى اظهار معـالم الدين على منصة الوضوح والجلاء والمعقولية وبعد تعمقه فى البحوث ومعالجته للقضايا الدقيقة وتبحره فى المعارف واستأساده على علماء عصره وتفرده فى الدقة فى البحث وروعة التصوير واستقصاء المواضيع باساليب الحكماء وادلة الفلاسفة وجهاده العنيف مات يطالع الصحابيين البخارى ومسلم اللذين هما حجة الاسلام بعد القرآن الكريم .

ولأبى عبد الله المازرى شهرة لا تقل عن شهرة الغزالى فى المشرق فقد كان محط رجال العلماء ومن اخص تلامذته تلميذ الغزالى محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية بشمال افريقية والامام الكبير محمد بن العـربى الاشبيـلى صاحب احكام القرآن والرحلة ، قرأ عن الامام المازرى ، بالمهدية واشـاد به فى رحلته ونوه بخصاله ودرس عن الامام الغـزالى ايضا وربما كان العلمـاء يأخذون عنه بطريق المراسلة فقد اشتهر من بينهم القاضى أبو الفضل عياض ابن موسى عالم عصره فى علوم الحديث ، وفنون اللغة وكلام العرب وايامهم ، دخل الاندلس طالبا للعلم فاخذ بطريقة عن جمـاعة وكان شعلـة فى العلـم والذكاء والفطنة والفهم فلما اشتهر صيت المازرى بالعرفان كتب اليه يستجيزه وهو الذى أتم كتاب استاذه المازرى المعروف بالمعلـم شـرح صحيـح مسلـم وتوجد نسخة منه بجامع الزيتونة خطية وسمى عيـاض كتـابه الذى اتم به شرح مسلم (الاكمال) وقال عياض عن المازرى الشهادة التالية :

« هو امام بلاد افريقية وما وراءها من المغرب وآخر المشتغلين من شيـوخ افريقية بتحقيق الفقه وممن بلغ فيه رتبة الاجتهاد ودقة النظر ، لم يكن فى عصره للمالكية فى اقطار الارض افقه منه ولا اقوى لمذهبهم وسمع الحـديث وطالع معانيه واطلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والآداب وغير ذلك فكان احد رجال الكمال فى العلم فى وقته وكان حسن الخلـق مليـح المجلس انيسه ، كثير الحكاية وانشاد قطع الشعر ، وكان قلمه فى العلم ابلغ من لسانه

كتب الى من المهدية يجيزنى كتابه المسمى بالمعلم فى شرح مسلم وغيره من تآليفه » ...

وعلى ذكر الطب فان الثقافة الطبيـة فى هذا العصـر منتشـرة وقد كان المازرى له ضلع فى الطب تدل على ذلك فتاويه المعززة بآرائه الطبية وقد ذكر فى هذا الصدد الاستاذ المؤرخ العلامة سيدى حسن حسنى عبد الوهاب ما يلى قال : « فانا لا ننكر ان الامام ، رضى الله عنه ، درس الطب وألف فيه لا سيما وقد نقل مترجموه انه كان » درس فنونا كثيرة من أدب وحساب وطب وغير ذلك ، فلا يستغرب حينئذ من تدوينه فى الطب وان لم يصل الينـا تآليفه المشار اليه فمن هذا الراى ما نسوقه اليك بعد من كلام المـازرى فى مسـألة طبية اوردها عرضا ضمن كتابه « المعلم » بمناسبة حديث التداوى بالعسل من صحيح مسلم وقد انكر بعض جهلة الاطباء المعاصرين ذلك قائلا : « قد اجمع الاطباء على ان العسل مسهل ، فكيف يوصف لمن له اسهال » .

فاجاب المازرى عن هذا الاعتراض البارد بقوله :

« الاشياء التى يفتقر فيها الى تفصيل قلما يوجد فيها مثـل ما يوجـد فى صناعة الطب فان المريض المعين يجد الشىء دواء له فى ساعة ثم يصير داء له فى الساعة التى تليها لعارض يعرض له ، فينتقل علاجه الى شىء آخر بسبب ذلك وذلك مما لا يحصى كثرة ، وقد يكون الشىء شفاء فى حالة وفى شخص فلا يطلب الشفاء به فى سائر الاحوال ولا فى كل الاشخاص واهل الراى من الاطباء مجمعون على ان العلة المعينة يختلف علاجها باختلاف السن والزمان والعادة والهواء وتدبير المألوف فان علمت هذا فينبغى ان تعلم ان الاسهـال يعرض من وجوه كثيرة ولو كان كتابنا هذا كتاب طب لاستوفينا ذكرها فمنها الاسهال الحادث عن التخم والهيضات والاطباء مجمعون على ان عـلاجه بتـرك الطبيعة وفعلها وان احتاجت الى معين على الاسهال اعينت ما دامت القوة باقية وحسبه ضرر واستعجال مرض فهذا الرجل يمكن ان يكون اسهاله من امتلاء وهيضة فدواؤه تركه والاسهال او تقويته ويجب حينئذ الاشارة عليه بشرب العسل وربما الزيادة منه الى ان تفنى المادة فيقف الاسهال ويكون الخلط الذى بالرجل يوافق فيه شرب العسل الخ » .

وانت ترى فى هذه الفقرة كلام متفنن فى الصناعة الطبية عـارف بقواعدها الكلية والجزئية ومنها يتضح لك ان المازرى كانت عنده اكثر من المشاركة فى علم الطب فلا يستغرب ان الف فيه تاليفا خاصا .

وكان يعاصر المازرى فى المهدية طبيب شهير ذائع الصيت فى الصنـاعة الطبية والهواية الادبية الا وهو أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز قال عنه ابن أبى اصيبعة فى كتابه عيون الانباء فى طبقات الاطباء : « كان من أكابر الفضلاء فى صناعة الطب وفى غيرها من العلوم وله التصانيف المشهورة والمآثر المذكورة

قد بلغ فى صناعة الطب مبلغا لم يصل اليه غيره من الاطباء وحصل من معرفة الادب ما لم يدركه كثير من سائر الادباء وكان اوحد فى العلم الرياضى متقنا للعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود ، وكان لطيف النادرة فصيح اللسان جيد المعانى ولشعره رونق » .

اما الادب وفنونه فى هذا العهد ، بالمهدية فقد كان ابرز شيء فى هذه الحقبة . ناهيك بان ملك المهدية أبا يحيى تميم بن المعز المتوفى سنة 501 ، كان من أئمة الادب وقصده الشعراء من الآفاق كابن السراج والصورى وانظاره ولأبى على الحسن بن رشيق القيروانى فيه مدائح رائعة مبتكرة فمن ذلك قوله :

اصح واقوى ما سمعناه فى الندى من الخبر المأثور منذ قديم
احاديث ترويها السيول عن الحيا عن البحر عن كف الامير تميم

وكان الملك تميم ملك المهدية فى هذا العهد من مجيدى الشعراء ولشعره طلاوة وطرافة ورقة ملكية لا تصدر الا عن نفس أبية وهو القائل :

وخمر قد شربت على وجوه اذا وصفت تجل عن القياس
خدود مثل ورد فى ثغور كدر فى شعور مثل آس

وهو القائل :

فاما العيش فى شرف وعز على التاج فى اعلى السرير
واما الموت تحت ظبى العوالى فلست بخالد ابد الدهور

وهو القائل ايضا :

فكرت فى نار الجحيم وحرها يا ويلتاه ولات حين مناص
فدعوت ربى ان خير وسيلتى يوم المعاد شهادة الاخلاص

وربما اقام بالمهدية مدة طويلة فى هذه الفترة التى اختل فيها نظام الدولة الصنهاجية أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر محمد بن حمديس الازدى الصقلى الشاعر المشهور بوصف البرك الطبيعية والمناظر الفتانة المعمارية ذات الفنون الطريفة الرائعة المتوفى سنة 527 هـ وهو القائل عندما فارق صقلية عند الانجلاء :

ذكرت صقلية والاسى يجدد للنفس تذكارها
فان كنت اخرجت من جنة فانى احدث اخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا حسبت دموعه انهارها

وهو القائل فى براعة نادرة وسحر مبين يصف بركة عليها اشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها المياه وتفنن فتذكر اسودا على حافاتها قاذفة بالمياه :

وضراغم سكنت عرين رياسة | تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكانما غشى النضار جسومها | واذاب فى افواهها البلورا
اسد كان سكونها متحرك | فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكانما | اقعت على ادبارها لتثورا
ونخالها والشمس تجلو لونها | نارا والسنها اللواحس نورا
فكانما سلت سيوف جداول | ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكانما نسج النسيم لمائه | درعا فقدر سره ما تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها | عيناى بحر عجائب مسحورا
شجرية ذهبية نزعت الى | سحر يؤثر فى النهى تاثيرا
قد صوحبت اغصانها فكانما | قبضت بهن من الفضاء طيورا

ولقد صدق ابن بسام فى ما وصفه به حيث قال فى حق بن حمديس هو شاعر يقرطس اغراض المعانى البديعة ويعبر عنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ·

وبالتالى فان الحركة الفكرية بالساحل على عهد الامام المازرى كانت مزدهرة أروع ازدهار بالرغم عن الاختلال السياسى بالبلاد وكان للامام أكبر الفضل فى خدمة المسلمين الصقليين النازحين من صقلية آنذاك الى تونس تحت ضغط النرمان ·

محمد الهادى العامرى

من تـراثنا الثقـافي :

الاعلان في احكام البنيان

بقلم : ابو بكر عبد الكافي

من تراثنا الثقافي التونسي الذى ما زال مجهولا فى حاجة للدرس والتعريف فالنشر كتاب « الاعلان فى احكام البنيان » وهو كتاب لطيف الموضوع نفيس المحتوى ممتع المطالعة مؤلفه تونسى من رجال العهد الحفصى ٠

عثرت على نسخة خطية منه لدى عائلة صفاقسية عريقة فى صناعة البناء واصيلة فى النقش والزخرفة على الحجارة وقد توارث افراد منها هذه الصناعة طبقة بعد طبقة قرونا عديدة مما جعل الشيخ المسـن الذى وجـدت المخطوطة عنده يضن بها ويحنو عليها حنوه على ابنه ، فكان يلفها فى قطعة من القماش ويربط عليها بخيط ثم يودعها بصندوق عتيق ٠

وهو يرى فيها ذكريات خالدة اذ هو ورثهـا عن جـدوده الذين تناولوها بالمطالعة والدرس مرات ومرات ٠ وكانت علاقتهم بمؤلفه علاقة صناعية فنية تناولها الكتاب بالشرح والضبط ، لان اكثر رجال هذه العائلة تولـوا خطة امانة البناء بصفاقس ومؤلف الكتاب تولاها بالعـاصمة ٠ ويتـأكد ذلك فى المخطوطة نفسها التى قد ظهر عليها علائم التعمير حتى اخذ يغزوها ما يغزو الكتب عادة من فساد وانخرام بفعل الارضة وضياع الاوراق وان كانت قليلة وعلى الاخص الورقة الاولى والاخيرة مما ضيع على الباحث اسم الكتاب واسم مؤلفه وناسخه وتاريخ ذلك ٠

غير انى ارى ان ما ضاع من اوراق الكتاب قليل جدا لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة وبقى منه 280 ورقة من القطع المتوسطة 20 ستم فوق 15 ستم ـ ويدل هذا على حرص العائلة فى حفظه ناهيك ان افرادها الذين توارثوه فى اعتزاز جيلا بعد جيل يحيطه شيخهم الذى وجـدته عنـده بهـالة من الحفظ والتقدير ويسميه ـ كتاب البناء ـ ٠

وافادنى شيخ الباحثين التـونسيين استـاذنا الفـاضل (حسن حسنى عبد الوهاب) بان اسم هذا الكتاب ـ الاعلان فى احكام البنيـان ـ ، توجـد نسخة مخطوطة منه بمكتبته ونسخة بالمكتبة الزيتونية بالعاصمة ٠

ومؤلفه ليس هو من رجال العلم او الفقه المشهورين وانما هو (عامل بناء) من الذين يكسبون عيشهم بسواعدهم ـ فهو كما يقول : (اجير بناء) واسمه

(المعلم محمد بن ابراهيم اللخمي يعرف بابن الرامي) المتوفى سنة 734 هـ. 1334 م. وهو تونسي مولدا ونشأة ووفاة وفي تأليفه الذى بين ايدينا ما يشهد بالخبرة والمعرفة في فنه وما يتعلق بصناعته مما قدمه في عصره وجعل آراءه تعتمد لدى الحكام والقضاة .

وكان ابن الرامي يتوقع ضياع اول كتابه او يعبث به من طرف حساده ومزاحيه فيخمد ذكره وتقبر جهوده لذلك نراه يذكر اسمه خلال تأليفه وعلى الاخص في اوائل الفصول والابواب - اذ هو يستهل الموضوع بقوله : (قال المعلم محمد) أو (قال المعلم محمد بن الرامي) أو (قال المعلم محمد مؤلف الكتاب) .

وذكر سبب ذلك في آخر المقدمة التى استهل بها تأليفه وقدمه بها مع أنه عرف لنفسه بعض التعريف في تواضع لطيف - يدل على ذكاء وسعة اطلاع وكثرة مجالسة - اذ قال :

(وجعلت في اول كل فصل (قال المعلم محمد) وذلك لوجهين : اني بناء اجير فيعذرني من وجد فيه خطا في اللفظ او الترتيب واما النقل فلا تتهم نفسي فيه لاني بذلت المجهود والتحوط والتحري في المسائل والوجه الثاني خوفا من الحساد في تغيير اول ورقة يكون فيها اسم المؤلف للكتاب حتى يبقى مجهولا فنرجو من الله ان يغنينا من مؤونة الحساد) - فلهذين السببين كان حريصا على ذكر اسمه مقرونا بكلمة المعلم .

والمعلم تطلق عادة على العارف الخبير بصناعة البناء ونحوه وان عوضت بمدينة صفاقس منذ الاحتلال التركي بكلمة اسطى ... ومؤلف الكتاب عاش في الفترة التى بين النصف الثاني من القرن السابع الهجري والنصف الاول من القرن الثامن الهجري - وتحققنا هذا من اسماء القضاة الذين اعتمدوه كخبير في القضايا التى تتعلق بمهنته وقد ذكرهم في كتابه مستشهدا بما كان له معهم من نوادر قضائية او بما قضى به من احكام امثال :

1 - العلامة الفقيه أبو العباس احمد بن الحسن بن الغماز الانصاري البلنسي الذى تولى القضاء بتونس سنة 660 هـ. وتوفي عام 693 هـ.

2 - القاضي العالم أبو يحيى أبو بكر الغوري الصفاقسي المتوفى عام 699 هـ.

3 - القاضي أبو اسحاق ابراهيم بن الحسن بن عبد الرفيع الربعي المتوفى عام 733 هـ.

4 - القاضي أبو زيد عبد الرحمان بن أبي عمرو عثمان ابن القطان البلوي السوسي الذى ولى القضاء عام 701 هـ.

5 ـ العالم الفقيه محمد بن احمد بن الغماز الذى تولى القضاء عام 718 هـ.

كان لمؤلف الكتاب اتصال متين بهؤلاء القضاة بحكم صناعته وكان يوجه من طرفهم للتحقيق والمعاينة فى القضايا والمشاكل المتعلقة بالبنيان ويبدى رايه فيما وصل لعلمهسواء من الناحية الصناعية الفنية أو الناحية القانونية الفقهية ـ وكثيرا ما يدعم اقواله واراءه بما يحضره من اقوال الفقهاء والعلماء التونسيين وغيرهم ويذكر احيانا المرجع والباب الذى ذكرت به القضية وتارة يسأل أهل العلم من معاصريه فيما اشكل عليه ـ ٠

وهو لا يضن على مطالع كتابه بآرائه الصناعية الفنية فيتعرض لما عن منهـا شارحا موضحا حتى يوضح جوانب القضية المنتدب فيها مما يبعث فى نفس قارئه الايمان بمهارته الفنية والهندسية وباخلاصه فى عمله المنتدب لتحقيقه ٠

انه يحدثك عن انواع البناء واسمائها الاصطلاحية بتونس مثل بناء الطابية الذى نسميه ببناء اللفة وبناء ضرب الباب وبناء الداموس المعـروف بالقبـو ويسمى بصفاقس (دمس) كما يعرفك بالتزويق وبناء الجابية ٠

ويتحدث عن متانة بناء الجدران المشيدة على الميزان ومعقودة مقمطة والتقميط مأخوذ من تقميط الصبى المرضع وشده بالخرق وعقود البناء تكون فى اركان الحيطان ويفصل الحديث فى كيفيتها وشكلها وتشابهها بتشبيك اصابع اليد والحائط الخالى من العقود يحكم فيه بالمرافق التى منها الكوىوالابوابوامكنةحمل الاخشابوجه الحائط والسقف لا يكون سقفا الا باربعة اشياء : الخشب وما يلقى عليه من لوح وقصب وتراب والاكحال أو فرش بالحجارة الخ ٠٠٠

انه يتحدث فى تأليفه عن فنية البناء ومصطلحاته بلغة مجتمعـه وبعبـارة سهلة واضحة تجعلك تعيش معه وتتصور امتداد رنين اللغة التونسية الشعبية من عهد المؤلف الى عهدنا الحاضر فى تشابه تام وتحريف جزئى كقوله مثلا :

« فتلبيس الحيطان بالبغل والعمل عليه بالجير والجبس وعمل الاكحال فى قاعة الدار » ـ أو قوله متحدثا عن هندسة المواجل :

« والعرف عندنا فى بناء المواجل نجعل للماجل بابين بابا يبنى منه وينزل اليه منه ويكون واسعا فى وسط داموسه وبابا آخر يستقى منه ويكون ضيقا فى جنب الماجل » ٠ وهذه الهندسة ما زالت الى اليوم حية متـوارثة نقلـدها وداموس الماجل قبوه والماجل المبنى داموسا نسميه (قبة) ٠ ومن حين لآخر يستشهد المؤلف رحمه الله بوقائع عاشها وعالج مشاكلها سواء بمدينة تونس أو غيرها من المدن الكبرى كسوسة والقيروان مما جعل محتوى كتابه طريفا نفيسا يفيد كل باحث فى تاريخ تونس مدة العهد الحفصى ٠

ويبدو ان مؤلفه قد افرغ كل طاقاته الفكرية والذاكرية فى كتابه وقسمه

الى فصول تحدث فى كل فصل عما يخص نوعا من انواع البنيان حسب الموضع والاحكام التشريعية فيحدثك حديثا جزلا سهل العبارة عن الجدران واضرارها ــ والكوى وصفة سدها او فتحها وما يحدثه الرجل لجاره من ضرر كضرر دخان الحمام او السنفاج او الدباغ او باحداث رحى او اسطبل او بمعمل كمادة أو بقناة مياه ونحوها ٠ ويحدثك عن اضرار الطريق كمن بنى اسطوانة فى الشارع أو اخرج بنيان داره أو ترك مياه منزله تسيل فى الطريق وبين هذا أو ذاك يطلعك على ألوان من حياة مجتمعه وآراء قضاة عصره الذين كان لهم اهتمام عظيم بالصالح العام ورعاية المدينة من كل ما يسبب للناس ضررا معتمدين فى ذلك على العدل وبعث همم النفوس ووعظها ٠

وحدثنا المؤلف بان القاضى ابن عبد الرفيع كان يامره بالمشى فى طرق المدينة وازقتها والتأمل فى الجدران ومهما وجد جدارا مائلا ينذر بخطر يهدمه ومن امتنع من اصحاب الدور والمنازل مع ثبوت ما يخشى منه فلا يقبل له عذر ابدا ــ قال المؤلف : « وملت عشية يوم الى موضع فوجدت حائطا مائلا مخوفا فقلت لربه اهدمه فقال اتركنى الى ان اهدمه فقلت له حتى يامرنى القاضى بتركك وجاء معى الى القاضى ابن عبد الرفيع وهو فى مجلس حكمه فلم يقبل له عذرا والزمه بهدمه فى العشية نفسها » ــ وكانت خارج مدينة تونس طريق مطفلة كلما نزلت المطر لا يقدر احد على المشى فيها راجلا او راكبا فاعلم بها القاضى ابن عبد الرفيع فاستدعى وكيل البلدة القريبة منها ووعظه وندبه لفعل الخير وحثه على فرش الطريق بالصحاص وقال له فيما قال : « ازال رجل شوكة من الطريق غفر الله له وانت ان كنت سببا فى اصلاح الطريق يجازك الله خير جزاء الخ » ٠

وكان سكان الدور بمدينة القيروان يتركون مياه الغسل تخرج من ثقب تحت باب الدار فتسيل المياه فى الشوارع قال المؤلف : « تحدثت فى ذلك مع قاضى المدينة فأمر براحا يبرح فى البلد بمنع ذلك وبوجوب سد مجارى الماء حتى لا يخرج الى الشوارع فيحدث اضرارا ومن لم يفعل يؤدبه قال وفعلا من لم يلب النداء أدبه بثلاثين سوطا » ٠

والكتاب كثير الفائدة ولا اعرف مؤلفا من نوعه اذ هو قد جمع الاحكام الخاصة بقضايا التداعى فى كل ما يتعلق بالبنيان مع ان مؤلفه لم يبخل خلال تأليفه على ذكر اصطلاحات عصره ونوادر عهده مما جعل الفائدة أعم ٠

ابو بكر عبد الكافى

اللامعقول ويا طالع الشجرة

بقلم : حمودة الشريف

الانسان فى هذا الوجود لا يستطيع أن يعيش بدون فن لانه مركب من مادة وروح فكما ان الجسم يحتاج الى تغذية مادية كذلك الروح تحتاج الى تغذية فنية ٠ فالفن وجد مع وجود الانسان ، فهو يبعث فى نفوسنا روحا متجددة ويحثنا على السير قدما لخلق عالم أفضل وحياة اكرم ، وقد شغف الانسان البدائى بالفنون فرسم على جدران الكهوف وانشد مقاطع غنائية ، فالانسان فى حاجة اكيدة للفن ولا تسمى الحضارة حضارة حتى تصنع الركائز التى تستند اليها من الفن ولا تستطيع الوقوف على ساقيها ما لم يعاضدها الفن ، فله مكانة هامة فى حياة الشعوب فما هو رأيكم عندما يكون الانسان آلة صماء يعمل وياكل ويشرب ولكنه لا يستمتع به ولا يشعر بما يضطرب فى جنانه ؟ أو لا يكون كالأعمى الذى فقد رؤية ما رسمه الله من جمال على هذا الكون ؟ طبعا سوف لا يكون له اى قيمة فى هذا الوجود وسوف لا يتمتع بما وهبه الله من جمال فنى خالد ، وبذلك يفقد مشاعره فيصبح متحجرا ، ويفقد الحنان والعطف ولا يهتز لمناظر الحسن والقبح وتموت فيه الغريزة الشاعرة ؛ فالفن ضرورى لروح الانسان كضرورة الغذاء للجسد ٠

والفنون تتغير بتغير نفوس الافراد ، فهى بسيطة مع النفوس البسيطة معقدة فى غيرها ، والتعقيد الحضارى سبب فى التعقيد النفسى وطبيعى أن يتعقد الفن لانه يعبر عن نفسيات الافراد ، ومن يلق نظرة على الفنون ما ضيها وحاضرها يجد هذا الكلام صادرة مسلما بها ، والفرق واضح بين حضارتنا وحضارة من سبقنا من الامم ، والمذاهب الادبية كالكلاسيكية والرومنطيقية والواقعية والرمزية والسريالية وغيرها أقوى دليل على ما أقوله ٠

والتقدم العلمى بهرنا بنتائجه ففرحنا لذلك وصفقنا ولكنه ما لبث ان تمرد وأطلق شياطينه فأثارت الرعب واستبد الخوف بالقلوب وأصدق مثال على ذلك ما قاله يوجين يونسكو :

« اننى أشعر بأن الحياة كابوس مؤلم ، انظر حولك تجد الحروب والمآسى والكراهية والموت يتربص بنا من كل جانب » ٠

فالحروب والمآسى التى ما تزال تخيم علينا اثرت فى الجيل المعاصر ، وخصوصا ما احدثه العلم الحديث من مآس فى الحرب العالمية الاولى فقد اثرت هذه الحرب فى الشبان فخلقت فى نفوسهم فرارا من الحياة ومآسيها وآلامها ، فهرعوا

يصورون احلامهم واقبلوا على نظريات نفسانية مثل نظرية « فرويد » الذى يفسر الانسان على اساس نفسى ويصور رغباته الجنسية وأحلامه ، وعلمية كالنظرية النسبية « لاينشتين » وحطموا المنطق الارسطى .

ومن جملة هذه النظريات وغيرها نشأ المذهب السريالى « المافوق واقعى » .

المذهب السريالى :

نشأ هذا المذهب فى نهاية الحرب العالمية الثانية على يد : اندرى بريتون ، وكيريكو ، وهانس ، وآرب ، وماكس ، وسلفادور دالى ، وجوان ميرو ، وماسون ، وبول كلى .

صور هؤلاء أحلامهم وآمالهم وكأنها وجود واقعى ، حى ، فظهرت صورهم مشوشة ، نقف أمامها حيارى ولا نستطيع فهمها الا اذا تجردنا من واقعنا وسرحنا معهم فى عالم الخيال وعشنا فترات الغثيان النفسى .

وواقعنا المشتت الذى يبدو فيه التناقض فى أجلى مظاهره كالقنابل التى تحرق الشعوب والطائرات وصراع الافاعى البشرية على البقاء كل هذه دفعت السرياليين الى ان يعيشوا عالما آخر وكانما هو ثورة على هذا العالم بأوضاعه الفاسدة المقيتة فعالمهم مشيد من الرؤى والأمانى العذبة وما تصبو اليه النفس وقد وضع الاستاذ حسن محمد حسن فى كتابه « مذاهب الفن المعاصر » عناصر المذهب السريالى فقال :

« وإن العناصر الهامة التى يشكل منها الفنان السريالى موضوعه والتى سبق ذكرها كالهلوسة والهذيان والحلم والخواطر الفكاهية انما تمثل مكبوتات العقل الباطن من الرغبات والأمانى التى نتوق الى الوصول اليها ونكون عاجزين عن ادراكها حيث تأخذ طريقها الى الظهور فى صور الاحلام التى تبدو لنا فى اشكال رمزية غامضة اثناء النوم ..... وطبقا لهذا الاساس والاوضاع يكون السيرياليزم معبرا عن الموضوعات الرمزية الغامضة كما يمكن أن نشاهدها فى عالم الرؤى والاحلام ، وهنا تبدو اهمية الصورة اللاشعورية فى الفن السيريالى من حيث انها تبدو فى التطبيق الفنى غامضة مشوهة المعالم حسبما تكون اصلا فى اللاشعور »

فالمذهب السيريالى حطم الحدود الواقعية والمنطق السليم ليعيش فى عالم آخر لا يعترف بمفاهيمنا وتقاليدنا .

وهنا نلقى سؤالا : هل موقف السيريالية سلبى إزاء الحياة ؟

الكثير من الناس يعتقدون أن السيريالية لا تعترف بواقعية الحياة وليس لها أدب هادف ولذلك نبذوها ونعتوها بالهذيان والحمى العقلية .

والحقيقة ان السيريالية تعترف بالواقع ولكن لا على الشكل الموجود عليه الآن بل على شكل آخر ، والأمثلة كثيرة تدلنا على أن النـاس يتغيـرون فى مفاهيمهم فنجدهم ينعتون شيئا بالكفر والالحاد والخروج عن المنطق السليـم والتفكير الصحيح ولكنهم يقبلون عليه بعد زمن وللاستدلال على ذلك أقول : فيما مضى كنا ننعت الرجل الذى يخرج مـع امـرأته السافرة بسوء الاخلاق ولكن منطقنا تغير ٠٠٠

فالسيريالية ثورة اضافية الى مناطق حياتنا الجدباء وهى تصوير لجانب من الحياة نجهله ، وهى وإن كانت تتحلل من القيود المنطقية التى تسيـر عليهـا حياتنا اليومية الرتيبة لكنها مع ذلك لذيذة ونافعة لأن مهمتها ليست الوعظ والارشاد وإنما اساسها البعث البشرى والتجديد فى المفاهيم ومنطقها يتصل باغوار النفس وأحلامها التى تزخر بالثراء والحياة ٠

ويتحدث توفيق الحكيم فى كتابه « يا طالع الشجرة » عن بيكاسو فيقول :

« ان بياكســو واذكره لا لذاته بل كمجرد رمز ودلالة على الفن الحديث عندما يصور تشكيلا فنيا يبدو بلا معنى وهو فى الحق لا يريد أن يحمله معنى حتى وإن وضع تحت الصورة عنوانا ، لان المعنى الذى يريده لا يقال وانما يعمل ، لا يسمى باسم وانما يكتشف بالخلق جديدا مجهولا فى عالم المعروفـات وإن عملية الكشف والخلق وحدها هى المعنى ٠

ولا يمكن أن يكون لهذا المخلوق الجديد اى معنى نفهمه نحن طبقا للمعـانى المعروفة لدينا لانه لا يتصل بعالم الجمال الذى نعرفه ولا بالمنطق الذى نفهمه وانما يحول ويحور الجمال القديم الى نوع آخر مجهول ٠٠٠ لجمال جديد فنى فى عرفه واعتقاده » ٠

إذن نستطيع أن نقول إن موقف السيريالية ايجابى فى الحياة ، وبعد ظهور السيريالية ظهر أدب آخر يشبهها هو « اللامعقول » وقد ظنه الكثير أنه أدب سيريالى : وقد نشأ هذا الأدب على يد شخص يسمى « يوجين يونسكو » وهو يعيش بباريس بين الحياة الفنية فى اقصى درجات فنيتها والحياة المادية فى أقصى درجات ماديتها ، ورأى عن كثب آلام الانسانية فى الحرب العالمية الاولى والثانية ، كما انه لاحظ الخوف الذى يهدد الانسانية اليوم من قيـام حـرب ثالثة ذرية فشعر هذا الأديب بانكسار نفسى وخيبة أمل فانزوى فى قصره العاجى يعيش مع احلامه وآماله ومع لغة نفسه الخاصة واخرج لنا أدبـا غير الأدب الذى ألفناه ومنطقا غير المنطق المعهود لدينا ، ولم يكن وحده بل شاركه فى الكتابة فى هذا النـوع من الأدب آخـرون أمثـال بيكيت ، وآداموف ، وفوتييه ، وقد تحدث عنهم توفيق الحكيم فى كتابه « يـا طالـع الشجـرة » ص : 14 فقال :

« وأخيرا ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية وعلى الاخص فى السنوات الخمسين لهذا القرن بوادر مدرسة جديدة فى المسرح ، ظهرت متفرقة اول الأمر برخت فى ناحية ويونسكو وبيكيت وفوتيه وآداموف فى ناحية أخرى ، ولكن سرعان ما بدا على هذه الحركة علامات التماسك والاصرار وإذا هى تصمد بقوة أمام هجمات المعارضين من أغلبية النقاد والمشاهدين الى الحد الذى لم يصبح فى الامكان تجاهلها » .

وإذا تتبعنا الخطوط العامة التى سار عليها المذهب السيريالى واللامعقول نجد تشابها كبيرا مما جعل « سوبو » و « بريتون » و « بنيامين » عندما عرضت مسرحيات يونسكو أمام الجمهور سنة 1952 — 1953 يقولون له : « هذا ما كنا نريد عمله » .

ويرد عليهم بقوله :

« ولكنى لم أكن أبدا واحدا من جماعتهم ولا من جماعة السيريالية الجديدة على الرغم من اهتمامى بهذه الحركة » .

فالذى يفهم من هذا الرد انه لا يوجد تشابه بين السيريالية واللامعقول ولكننا نؤكد التشابه وهذا ما يظهر فى حديث يونسكو عن عمله الفنى « مجلة المسرح » العدد II — السنة I — نوفمبر 1964 — ص : 91 .

إذ يقول :

« كنت اعتقد دائما أن حقيقة العمل الفنى هى أعمق واكثر امتلاء بالمعنى من واقع الحياة اليومية ، أما الواقعية سواء كانت اشتراكية أم لا فتقتصر على تصوير الواقع ، إنها تضيق من نطاقه وتضعف من قيمته وتزيفه ، انها لا تأخذ من الاعتبار حقائقنا الاساسية والحاحاتنا الجوهرية كالحب والموت والدهشة ، انها تعرض الانسان فى منظور مصغر وغريب ، إن الحقيقة إنما تكمن فى احلامنا فى مجال التصور » .

فالفرق بين السيريالية واللامعقول واضح وهو أن السيرياليين يعيشون فى عالم الصور والاحلام بينما يعيش أصحاب اللامعقول بالاضافة الى ما تقدم فى تمزق وجودى ميتافيزيقى وسخرية تتداخل فيها المأساة والملهاة فى آن واحد ، ويتحدان فى أن الثورة واحدة على المسرح المعقول .

توفيق الحكيم واللامعقول :

وقد وجد هذا الأدب « اللامعقول » فى بلادنا سوقا نافقة لأنه يعبر عن حيرة الشعب العربى وتفتيشه عن المستوى الأفضل ، وقد قام بمحاولات ناجحة فيه الاديب المسرحى « توفيق الحكيم » ، وقد أرسلته الحكومة المصرية

ممثلا لها فى اليونسكو بباريس وبقى هناك من سنـة 1959 الى 1960 ووجـد فكرة اللامعقول يختصم فيها القوم واطلع عن كثب على آراء المؤيدين والخصوم والتفت الى الوراء فوجد تراثنا حافلا بأصول هذا الأدب فتأثر وكتب كتاب « يا طالع الشجرة » ومرد هذه التسمية الى اغنية مصرية قديمة وهى :

يا طالع الشجرة

هات لى معك بقرة

تحلب وتسقنى بالملعقة الصينى

مضمـــون الكتـــاب :

ليس هناك مناظر ٠

القسم الأول : الحوار يدور بين المحقق والخادمة يسألها عن غياب سيدتها وفى أى وقت فتجيبه : عند عودة السحلية الى جحرها وهذه لا تعود الا عنـدما يظهر سيدى من تحت الشجرة وذلك بعد أن تنادى عليه سيدتى ولا تنادى إلا بعد أن يرطب الجو ولا يرطب إلا عندما تقول له فقد خرجت ولم تناد كالمعتاد وقالت : إنها ستذهب لاشتراء بكرة خيط لتنسج ثوبا لابنتها بهية وسوف لن تتأخر اكثر من نصف ساعة ٠

ثم يدور الحوار بين المحقق والخادمة فى شأن بهية فتقول الخادم :

« ان بهية التى تنسج لها سيدتى ثوبا لم تولد ولن تلد وقد اسقطتهـا منذ الشهر الرابع عملا بكلام زوجها المتوفى ٠ ويسألها المحقق : لماذا تنسج الثوب إذا ؟ فتجيبه : « لأنها تراها ولدت كل يوم وتولد كل يوم » ٠

ثم يتحدثان عن علاقة الزوج ـ بهادر ـ بزوجته ، وعن حب بهادر للشجرة التى وهبها كل تفكيره ٠

ثم يسألها المحقق عن كيفية عيش الزوجين فتجيبه : بأنهما فى غاية الاتفاق وبامكانه إذا أراد التحقق من الأمر أن ينظر هنالك فى ذلك الركـن « قـرب النافذة المطلة على الحديقة ٠٠٠ ها هى ستى بهانه فى ثوبها الأخضر الذى لا تغيره ٠٠٠ تجلس على كرسيها كالمعتاد » ص 46 فيرى المحقق الست بهـانه تشتغل بالابرة ثم تأمر زوجها بالدخول لأن الجو رطب فيدخل وفى الآن نفسه يسألها عن سقوط بعض ثمار الشجرة رغم سكون الرياح ، فتجيبـه بهـانه : بأنها هى التى اسقطتها وهى أول ثمرة « تعنى ابنتها » وهكذا يستمر الحديث هى تتحدث عن ابنتها وهو يتحدث عن ثمار الشجرة وعن النمو ٠ وتخاطب بهانه بهادر فتقول له : « انظر ٠٠٠ انظر ٠٠٠ ها هى فى يومها السابع وكانها طفلة عمرها سنة ٠٠ ها هو الاحتفال « بسبوعها » ! ٠٠ انظر ٠٠ انظر ٠٠

الشموع ..! الشموع ..! اسمع ..! اسمع ..! دق الهون ! .. دق الهون ! اتسمع ترديدهم :

« برجلاتك ... برجلاتك

حلق دهب فى وداناتك

« يا رب يا ربنا تكبر وتبقى قدنا »

برجلاتك ... برجلاتك »

وبعد سماع حفلة السبوع يسمع الزوج جلبة القطار

ثم يأمر المحقق الخادمة بالانصراف وينادى بهادر فتدور بينهما محاورة فى شأن اختفاء الزوجة وقتلها ، وكان الزوج يتحدث عن اختفاء السحلية بينما كان المحقق يتحدث عن اختفاء الزوجة ، ويحاول بوسائله المنطقية أن يحور مجرى الحديث للتحدث عن الزوجة وأنكر الزوج قتلهـا ثم انخدع المحقق لانه اعتمد على منطقه فاستنتج أن بهادر قتل بهانه ودفنها تحت الشجرة وأراد أن يحفر بالفأس تحت الشجرة ليستخرج الجثة فحذره الزوج وقال له :

« هى جثتـى ... جثتـى أنـا ... والفأس التى تصيب جذع الشجرة ستصيب رقبتى ... أتفهم ذلك ...؟ أتفهم ؟! » ص 66 .

ثم يزيد الزوج تأكيدا عندما يصمم المحقق على الحفر « إنك تقتلنى ... إنك ستقتلنى ، إنك ترتكب جريمة قتل !... » ص 66 .

ويؤكد الزوج للمحقق انه لم يتحدث عن القتل وإنما تحدث عن أحسـن مكان للدفن ألا وهو تحت الشجرة ، ثم انه يعيش مع زوجته فى اتفـاق تـام فيرد عليه المحقق : إن الزوج لا بد ان يقلق من زوجته فيجيبه الـزوج : إن عادة القلق قد فقدتها منذ ثلاثين سنة عندما كنت مفتش قطار ، ثم يتسمـع بأذنه ويلتفت للمحقق ويقول له : « اسمع !... ها هو صفير القطار !... اسمعت ؟... » ص : 76 فيتحقق المحقق من ذلك بعد لحظة ، ويبدأ بهادر فى التفتيش ، وهنا يظهر وهو يرتدى البدلة الرسمية فتظهر الدهشة على وجه المحقق ويقول :

حقا ... هذا أنت بردائك الرسمى ..! ص : 78 .

ويسمع صوت الصبيان وهم يرددون :

يا طالع الشجـرة هات لى معك بقـرة

تحلـب وتسقنـى بالملعقـة الصينـى

وأثناء التفتيش يجد بهادر درويشا لا يحمل تذكرة ركوب فتدور محاورة

طويلة بينهما ويمد الدرويش يده الى الهواء فيأتي بتذكرة ويذهب في سبيل حاله ، ثم عندما يرجع يثور عليه الزوج لأنه شهد ضده في قضية الزوجة وأخيرا يزج بالزوج في السجن وهو يصيح :

ستحفرون تحت شجرتي !... ستقتلون الشجرة !... يا قتلته ! ... يا قتله !...

القسم الثاني :

تبدأ عملية الحفر وتدوم مدة زمنية طويلة ثم يسمع طرق على الباب فتخرج الخادم لتفتح الباب واذا بها تصيح :

هي ... هي ... المقتولة ... سيدتي

وتدور محاورة بين المحقق والزوجة ، ويعتذر لها عن سجن زوجها لأن في كلامه ما يفهم منه انه ارتكب جريمة القتل وقد شهد عليه ايضا الدرويش الذي كان في القطار ، وتلوم الزوجة المحقق على ما بدر منه ، ويسرد عليها ما حصل فتصدقه ثم تتراجع في اقوالها لانها كانت تتكلم حسب عقلها لا حسب ما حصل ثم تلومه على حفر الشجرة لانها حياة زوجها فيجيبها : بأنه يعلم ذلك وقد سمعها تتحدث مع زوجها عن الشجرة .

ويرجع الزوج الى بيته ويروعه ما في الحديقة من الحفر ويعتذر له المحقق عن ذلك وفي آخر المسرحية نشب خصام بين الزوج وزوجته فسألها عن المكان الذي اختفت فيه ولكنها امتنعت عن اخباره وأخيرا قتلها وعندما كان مشغولا بدفنها تحت الشجرة حضر الدرويش وتحادث مع الزوج خارج المنزل وعندما رجع الزوج ليتم عملية الدفن وجدها قد اختفت بينما وجد الشيخة خضرة ملقاة على الارض ميتة .

وتنتهي المسرحية بغياب الدرويش وبدوي في ارجاء المسرح وبتداخل الاصوات (صفير القطار وحفلة السبوع ونشيد الرحلة) .

عندما نقرأ هذه المسرحية تبدو لنا كأنها اضغاث أحلام ولذا يجب أن لا ننظر الى هذا النوع من الأدب على أنه وحدة متناسقة منطقية وإنما ننظر اليه كلوحات فنية مستقلة بعضها عن بعض ، وانه لمن الجدير تشبيهها بالاحلام لأن الكثير منها لا نجد بينه ترابطا منطقيا ولكن عندما نضع كل لوحة في موضعها تظهر بلاغة الحلم وبراعته .

وأريد أن أنبه الى شيء هام الا وهو عالم ما وراء المحسوس فنحن لا نستطيع فهم هذا العالم ولا نتحصل على اية نتيجة اذا أردنا فهمه بعقولنا ومنطقنا ، ومن يطالع كتب الصوفية يجد هذه الحقيقة فالصوفيون عندما يريدون الاتصال بعالم ما وراء المحسوس لا بد أن يتهيأوا لذلك والأمثلة على ذلك كثيرة ...

فاذا أردنا أن نفهم هذه المسرحية او غيرها من مسرحيات أدب اللامعقول علينا أن نتجرد من المحسوسات ونترك الروح وحدها تتجول فى هذا العالم وتفتش عن الحقيقة ، ولعل هذا ما قصده يوجين يونسكو بقوله :

إن مسرحى بسيط جدا ، وسهل جدا على الفهم ، ومرئى ، وبدائى ، وطفولى والمسألة ببساطة هى أن يتخلص المرء من بعض العادات العقلية المثبتة سلفا بالبراهين » مجلة المسرح ــ عدد ١١ ــ السنة ١ ــ نوفمبر 1964 .

فاذن يجب ألا يخضع الفن للمنطق لأن ذلك يفقده روعته وفنيته ويصبح جافا كالعلم ، فعندما نعيش فى عالم الرؤى ونحيا فى لحظات الانخطاف ونتجرد عن الزمكانية نجد أنفسنا غرباء عن العالم المادى ومنطقنا يتبدل ومفهومنا للاشياء يتغير ، وعندما نستبطن نفوسنا نجد أن اللغة التى جعلت وسيلة للتفاهم مع البشر أصبحت لا قيمة لها فلا نستغرب إذا لم نجد بين حديث الزوجين وحدة منطقية،فكل منهما يحلم بأحلامه ويعبر بلغة نفسه،فبينما كان الزوج يتحدث عن شجرته « عندما تبدأ الرطوبة فى الجو تدخل الشيخة خضرة مسكنها ... لكن الذى لا أعرفه هو أن الرياح اليوم ساكنة ، ومع ذلك تسقط بعض ثمار البرتقال !... ما الذى اسقطها ؟!...

كانت الزوجة تتحدث عن ابنتها « بهية » ، : انا التى اسقطتها كانت أول ثمرة ... وأنا التى اسقطتها بيدى ... لم يكن وقتئذ يريدها . بسبب الفقر ... لم يكن يملك شيئا بعد سوى دكان البقالة » .

وكذلك ما نلاحظه فى حديثهما عن الاستراحة فهو يقول لها : إنه استراح بعد أن احيل على المعاش وهى تجيبه : بأنها استراحت بعد أن شهدت حفلة سبوع ابنتها . ثم ما نلاحظه من اختلاف المنطق بل اللغة بين الزوج والمحقق حتى زج بالزوج فى السجن .

فنستطيع أن نقول : إن لكل انسان لغة نفسية خاصة لا يمكن أن يتفاهم بها مع الآخرين .

ومنطقنا لا يقبل التناقض كأن يكون الانسان مثلا واقفا فى الشرفة وهو فى الآن نفسه يرى نفسه يمشى فى الطريق لكن عالم المافوق واقعى يقبل هذه النظرية فهو يؤمن بوجود الشىء فى الآن نفسه فى مكانين مختلفين ، ولذلك نرى الزوج مع المحقق وفى نفس اللحظة يفتش القطار .

ولنرجع الآن الى كل شخصية من شخصيات المسرحية ونحللها .

المحقق :

هو رجل العلم والمنطق الذى يبحث الاسباب والمسببات ليستخلص منها

النتيجة ، فهو يعيش مشاكل الحياة يبحث عن الحقيقة بوسائله المادية كالفأس « وهي رمز للدلالة على الوسيلة كالمرقب والمجهر » ، وهل الحفار إلا عقله المجد الباحث عن الحقيقة؟ فهو يبذل كل ما فى استطاعته ويستعمل عقله ليصل الى عالم ما وراء الواقع ولكنه يصاب بالفشل المقيت فيضج ويتألم ، ويثور على بهادر الذى يمثل عالم الماورائيات وتشتد مرارة الوجود عنده عندما يجد أن كل أبحاثه فى هذا العالم ذهبت ادراج الرياح « وهذه الخيبة تتمثل فى رجوع بهانة الى منزلها » فهو قد استجمع قواه المادية واستند فى بعض الاحيان الى حجج وهمية ولكنه لم يظفر بما يأمله ، ولا غرابة فى ذلك فالغزالى نفسه بحث وأراد أن يستدل بعقله على عالم الماورائيات فلم يستطع وأخيرا قال : انه نور قذفه الله فى قلبى ٠

بهـــادر :

هو رجل الفن والخيال الذى يحيا بشجرة فنه ولولاها لما استطاع العيش ، فهى تنتج ثمارا متنوعة فى فصول متعددة ولا تتوقف ابدا عن الانتاج ٠ هو ذلك الفنان الذى بنى قصرا عاجيا تحيط به حديقة فنية وابتعد عن الحياة ومشاكلها وطفق ينظر اليها من خلال نافذة بلورية شفافة ، فقد هجر الحياة وضجيجها وركن الى السكون فى قصره يتأمل شجرته ويحفظها من العاديات ويضع لها السماد لتثمر وتزهو ٠

وقد ابتعد عن الزمان ، عن قطار الحياة ، ليعيش فى عالم روحانى تساعده على ذلك بهانة التى وهبت حياتها لزوجها لينعم بعالمه ، والزمان عنده لا يعد بالثوانى والساعات المعهودة فهو لا قيمة له ، وهو يعيش فى اللامحدود ، فى ضياع ، فى هيام شديد بفنه، قد قتل غرائزه المادية وجعلها سمادا لفنه وحياته بعد فنه لا تساوى شيئا « قرارى جاهز ولا رجوع فيه ٠٠٠ ولا شيء يجعلنى اخاف وأحجم ولو حكم على بالاعدام لان حياتى بعد ذلك لن تساوى شيئا » ٠

بهـــانـة :

إن نفس الانسان ميدان فسيح تتقارع فيه الغرائز المادية والروحية فالغرائز الروحية تريد الارتفاع بالانسان الى عالم روحانى تأملى يشرق عليه نور الموجود الاول ، فيلتذ وينعم ويسعد ، اما الغرائز المادية فهى التى تحاول أن تستحوذ عليه وتشغل فكره بالمشاكل المادية عما يتمناه من الوصول الى العالم الغنى الروحى، وتخلق فيه حب الحياة والجشع والتكالب على الاموال فيعيش دائما ملتصقا بالارض مثل غيره من الديدان البشرية التى لا هم لها إلا الانغماس فى حمى الشهوات وبهانة تمثل هذه الناحية فقد اظهرت التودد والعطف والمحبة لبهادر لتجذبه اليها ولكنه انتبه الى ألاعيبها وحبائلها فقضى عليها وجعلها سمادا لشجرة فنه ، ليعيش مع روحانياته ٠

بهيـــة :

مولود غريب تعلن عنها بهانة ، فهو قد ولد ومات وهو لم يولد · وسيولد ، فهو يعيش فى كل الازمنة · حى ميت فى آن واحد فهو مشــاكلنا الاجتمــاعية التى تنقضى وتتجدد كل يوم وتظهر لنا فى اشكال مختلفة ·

الـــدرويش :

إن فى أعمق اعماقنا مراقبا يراقب اعمالنا خيرها وشرها فاذا عملنا عملا حسنا فرح وطرب وآنذاك نشعر بالراحة والطمأنينة وإذا فعلنــا فعــلا فيه ضــرر للبشرية حزن وتألم وآنذاك نحس بالألم يخزنا ، فهذا الـرقيب هو الضمير الذى يداخل نفوسنا فلا نراه ، وما الدرويش إلا الضميـر الذى يحكـم على اعمالنا ؟ والمفتش يقول للدرويش « هل تسمح أن أكـون من مـريديك لأنى أشعر وأنا فى جوارك بالطمأنينة » ص 92 ·

فالضمير هو الذى يبعث فى نفوسنا الراحة والاطمئنان أو الألم والندامة ، وقد لاحق الزوج القاتل وأنبه وشهد ضده ، وما شعور الزوج بالحسرة والندم واعترافه بجريرته إلا استجابة لنداء الضمير الذى ما فتىء يوبخه ·

فالدريش اذا هو الضمير الذى يراقبنا صباح مساء ·

وبعد هذا التحليل الموجز لاهم شخصيات المسرحية نلقى سؤالا :

هل أدب اللامعقول معقول ؟

لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال إلا بعد أن نلخص اهم الأسس التى يعتمد عليها أدب اللامعقول ، وهى :

اللغـــة :

وهى أهم أس من أسس أدب اللامعقول ، لأن لكل شخص لغتــه النفسية الخاصة به ، يصور بها أحلامه وما تصبو إليه نفسه ولا يمكــن لشخصين ان يتفقا فى اللغة ، ولو طالعنا المسرحيات التى كتبت فى الأدب اللامعقول فاننا نجد كل الاشخاص لا يتفقون فى اللغة مثـل مسرحيـات يـوجين يونسكـو « عريس لابنتى ، والملك يحتضر ، والمغنية الصلعاء » ·

اللاواقعيــة : لأن الأدب إذا صور الواقع تصبح صوره جوفاء مشوهة لا تزيدنا أى شىء فى معلوماتنا ونحن بطبيعتنا نملها لأننا نلاحظها كل يوم ·

اللاالتـــزام :

فالاديب الملتزم يسير ببطء ليفهم الشعوب وبذلك يصبح صـورة طبــق الاصـل لمشاعرهم ، أما الأديب اللامعقولى « نسبة الى أدب اللامعقول » فانه ينظر الى الحياة فيسخر من رتابتها ويوقظ النائمين بضحكه وسخـرية ، فهو

يثور عليهم ولكن لا يبنى لهم ، ويبعث فى نفوسهم الحيرة ليفتشوا عن الطريق الأقوم ، وبهذا الصدد يقول يوجين يونسكو : « حينما اصل الى فصل نفسى عن العالم واستطيع رؤيته يبدو لى مضحكا فى غـرابته ولا يصـدق » مجلة المسرح ـ العدد II السنة I ـ 1964 ص 96 ·

فالاديب اللامعقولى ليس واعظا من الوعاظ وانما هو كهرباء تبعث الرعشة والاهتزاز فى الناس ·

انكسار الذات الشاعرة واحساسها بالأسف عندما تقارن عالمها الـداخلى بالعالم الخارجى الموبوء ولذلك تثور هذه الذات على قيم البشرية المزيفة .

ثورة على المسرح لانه لم يبدع شيئا بمنطقه القديم المتوارث ·

وبمكننـا الآن الاجـابة عن السؤال فنقول : « إن أدب اللامعقول هو أدب معقول وسبب تسميتنا له باللامعقول ترجع الى أننا لم نألفه ولكن سنـألفه والمستقبل يبشر بذلك وإن كنـا نثور عليـه الآن ونتهمه بالعقم وباللاجدوى ، وخير مثال على هذا هو رد الزوج على المحقق فى قضية السحلية ص : 57 من كتاب : « يا طالع الشجرة » :

المحقـق : **تحبهـا** ·

الزوج : الآن ... نعم عندما ترى شيئا بقربك على مدى تسع سنوات ··· لا بد أن تعرفه وأن تحبه ··· أليس كذلك ؟··· لست أنكر ··· لم يكن الامر كذلك عندما وقع نظرى عليها أول مرة يومذاك ، رأيتها قبيحة المنظر ، مرعبة ، تثير فى نفسى التقزز ، هممت بقتلها ، ثم طرحت هذه الفكرة مؤقتـا تركتها مؤقتا تعيش ··· ثم صرت أراها كل يوم تخرج من مسكنها وتعود اليه فى أوقات منتظمة لم ألبث ان اعتدتها وهكذا ارتبطت بها ... ورتبت حياتى فى الحديقة على حياتها ونظامها وعاداتها ··· » ·

وهذا المثال ينطبق على حالنا نحن ونظرتنا لأدب اللامعقول اليـوم أما فى الغد فـ « بدون شك ··· سوف يتنـاول العلمـاء هذه الشجـرة بالبحث » ص : 203 و « سينتفع العلم والناس بكل هذا ··· » ، ص : 204 ·

حمـودة الشريف

مطالعات

ديوان « قافلة العبيد »

شعر : محسن بنحميدة

بقلم : جعفر ماجد

يحق لنا ، ونحن نستعد لاستقبال الموسم الثقافي الجديد ان نقول ان سنة 1967 كانت سنة الكتاب التونسي ، وانه لمن دواعي السرور ان نرى المجال لا يكفينا لعرض كل المنشارات التونسية وقد كنا لا نظفر بكتاب تونسي في سلسلة الكتب الجديدة الا نادرا ، والكتاب الذي سنتحدث عنه اليوم ديوان شعر بشرت بطبعه كثير من الصحف وطال انتظارنا له حتى يسر له الظهور بفضل الدار التونسية للنشر وحزم المشرفين عليها ٠

قافلة العبيد ، كتاب اليوم ، هو المجموعة الشعرية الاولى للكاتب والشاعر والمترجم المعروف محسن بنحميدة ٠ ومحسن بنحميدة من ابناء جيل ما قبل الاستقلال الا انه يمتاز بنشاطه الدائب واستمراره في العمل الادبي بنفس الروح مما لا يجعلك تفصله عن ابناء الجيل الجديد ، بل لعلك تعده ، ان كنت من انصار طريقته في الشعر ، احد الرواد السباقين الذين يتهمون صنفا من شباب اليوم بالتقليد ولا شك ، من اجل هذا تختلف الاراء في قافلة العبيد ٠

فهذا الكتيب يشتمل على ست وثلاثين قصيدة من شعر لا نسميه لا جديدا ولا حرا لان صاحبه يريد ان يخرج به عن جادة العـرف ويستنبط له مذهبا خاصا رغم الوشائج التي تربطه بشعر عبد الوهاب البياتي العراقي ، والشبه الموجود بين محسن بنحميدة والبياتي يظهر في موطنين على الاقل ، يظهر في الاغراض الشعرية وفي الموازين ، فاذا كان البياتي صاحب الاباريق المهشمة والنار والكلمات والاطفال والزيتون وسفـر الفقـر والثـورة يعيش ثائـرا من اجـل الحـريـة والسلـم وحـب الانسـان ، فقـد جـاء شعـر محسـن بنحميدة شاهدا على نضال الشعب التونسي قبل الاستقلال وبعـده ، ولعل القراء يذكرون ان لم يكونوا علموا ذلك ان بنحميدة لم يتخلف مرة عن رثـاء حشاد في ذكـرى اغتيـالـه من كل عام ، واذا تأملت هذا الشعر تنشقت منه رائحة الكد وعرق العامل وغبـار الحقـل والمنجـم ، ولا ينكر على محسن هذا التغني النضالي الذي لم تزده السنون الا جدة وحدة ووقعا في التغني :

هـو يعمـل
هـو يجهـد

وطعـــامـه
دون ذرة
وشـــرابـه
دون قطــره
مهـده دومـا أليـم
وطــريقـه
نحـــو حتفـــه

وفى قافلة العبيد ، صفحات عن حوادث الساقية وحرب الجزائر والاستقلال تدل على ان الشاعر لم يكن بمعزل عن حيـاة قـومه بل انه جعل من كل هذا الاتجاه دعامة لفلسفته الشعرية ان صح ان تكون للشعراء فلسفة ، فالشاعر فى نظر محسن بنحميدة عامل مثل كل العاملين لا حالم مترف ، والحرف فى يده وفى فيه كالفأس والرفش فى ايادى العاملين الكادحين ومحسن بنحميدة لم يعد يتسع قلبه للحب بل انه لا يتسع الا لنـوع خـاص من الحب هو حب الاشقياء والبؤساء اما الغزل فقد طواه طى الكتب :

فاهملت حبى وهـو فريـد
واخفيت شوقى وهو شديـد
مكان اللعب ، وطى الكتب
واطلعت شعرى يسير نمير
لحقـن الدمـا وبعث القبـور
وعون الرقيق، وغصب الحقوق

وهكذا نرى ان محسن بنحميدة قد ضم الى الشعر الوطنى شعرا انسانيـا متعددا لمواضيع الا ان كل هذا الشعر يقوم على مثل واحدة من الحق والحرية والعدالة بين الناس وحب الانسان واكبار جهوده والتعاطف معه فى الشقاء ، هذا هو اجمالا مضمون هذه المجموعة الشعرية اما طريقة الشاعر فهى كما قلنا طريقة خاصة ، فقد اراد محسن بنحميدة ا نيخرج عن العمود الشعرى القديم ولكنك تقرا شيئا من شعره فتحس بالوزن يربط بين ايقاعات الكلام فلا تكاد تانس اليه حتى ينفرط السلك من جـديد ثم انك تلمس خـلال الابيـات او الكلمات رغبة الشاعر فى الابقاء على القافية فتزدحم القـوافى المتشـابهة على سمعك او لسانك حتى توشك ان تنكر عليها الرتابة ، ولكنك تفاجأ أحيانـا بأسطر طويلة لا تتخللها قافيتـان متزاوجتان الا لماما ــ فاستمـع اليه مثلا مخاطبا الرئيس الحبيب بورقيبة :

والمجـد مجـدك يـا حبيـب
والشعب شعبـك يـا حبيـب
انـت الحبيـب
نحـن الحبيـب
ربـي بعثـت لنـا الحبيـب
انـت المجيـب

واننا نكتفى بعرض قافلة العبيد ولا نمس بالنقد هذه الطريقة التى تعد حساسة فى ديوان بنحميدة وان كنا مبدئيا لا نقره عليها ، فقافلة العبيد تحمل افكارا اكثر مما تحمل اشعارا ولعل محسن بنحميدة كان ينجح فى نشر أفكاره فى الشعر لو كتبها نثرا ومهما يكن من أمر فكل الاتجاهات الأدبية تخصب الادب التونسى وتثريه ، وقافلة العبيد ، او قل قافلة الاحرار لبنة فى صرح ثقافتنا الفتية ، واننا لجد مستبشرين بحركة النشر المباركة ولا نترك الفرصة تفوتنا قبل ان نحث الدار التونسية للنشر على الاسراع بطبع الدواوين التى تحت الطبع وعسى ان يكون الموسم القادم اخصب من هذا الموسم وان تلقى فيه قافلة العبيد حظها من التحليل والنقد .

جعفر ماجد

أصداء الفكر

• **الملتقى الخامس لهواة الأدب بالمنستير :**

انتظم بالقصر الرئاسي بصقانس (المنستير) ملتقى هواة الأدب يومي 29 و 30 جويلية 1967 • واستمع فيها ثلة من المسؤولين والأدباء بحضور فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة الى محاضرتين للأستاذين محمد العربي عبد الرزاق وعمر بلخيرية حول الأصالة في الأدب والتأثر والتأثير في الأدب • وقد وقعت مناقشة المحاضرتين مع جملة من إنتاج الشباب • وكان ألقى السيد محمد مـزالي المدير العام للاذاعة والتلفزة التونسية ومدير مجلة الفكر كلمة الافتتاح هذا نصها :

انه ليسعدني ويشرفني ان اقف امامكم اليوم لاقول كلمة الافتتاح في هذا الملتقى السنوي الخامس لهواة الادب • واني في الحقيقة لعاجز عن ان اعبر لكم عما يجيش بصدري من عواطف المسرة وعظيم الشكر والامتنان لما ابديتموه من عطف متواصل نحو اسرة الادب والادباء بالبلاد التونسية • وليس ادل على رعايتكم لشؤون الادب من كريم حرصكم على الاشراف بنفسكم على اعمال هذا الملتقى الذي يلتئم بالقصر الجمهوري ، وذلك رغم كثرة اشغالكم ورغم تشعب شؤون الدولة التي تقتضي منكم العناية المستمرة في كل يوم وفي كل ساعة•

وبالرغم من ان هذه المشاركة الفعلية من طرف رئيس الدولة في اشغـال ملتقى هواة الادب الشبان يعد حدثا فريدا في بابه فاننا لم نكن لنستغـرب الامر لاننا قد تشبعنا بهذه الطريقة البورقيبية الاصيلة في مباشرة الامور من اقرب السبل واجداها •

ثم انا قد عهدنا من فخامتكم ذلك الحدب المستمر على شؤون الفكر ببلادنا وهذه الرعاية اليومية للادباء وللادب •

وقد ادركتم منذ زمن بعيد بفضل ما تمتازون به من نافذ البصيرة قيمـة الحركة الادبية والفكرية في تدعيم نهضة البلاد واثبات شخصية الامة فشرفتم الادباء في عديد المناسبات واكرمتموهم في غير ما مرة حتى اصبح لسان كل اديب يلهج بذكر اياديكم ويعجز عن حصر مظاهر فضلكم ورعايتكم •

سيـدي الـرئيس ،

ان تونس تسير اليوم في سبل الكفاح من اجل بناء مجتمع فاضل يتسم بالرقي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي• ولقد كان كفاحكم مستمرا لتضمنوا لهذا الشعب حريته وكرامته فجاهدتم وصمدتم في وجه الطغيان حتى حققتم

لهذه البلاد استقلالها السياسي ثم تصديتم لمخلفات الاستعمار فحققتم لهذا الشعب أسس الحياة الكريمة وركزتم سلامته وعملتم ولا تزالون على ضمان مستقبله الاقتصادي وحياته السعيدة ٠

وقد كنتم يا فخامة الرئيس على تمام الشعور باهمية المستوى الثقافي والكفاءة الفكرية بالنسبة لمستقبل هذه الامة فعمدتم في نفس الوقت الى العمل من اجل تركيز أسس حركة فكرية متينة اصيلة ٠ وقد برزت جهود الدولة في هذا الميدان الى جانب العناية بتعليم شباب الامة في الحرص على احياء التراث القومي وتركيز مقومات الامة الروحية والحضارية ، وفي نشر الثقافة وتعميمها عن طريق اللجان الثقافية ودور الشعب وانشاء مصالح ودواوين خاصة بالنشر والتوزيع والعناية بالفنون على مختلف انواعها مما يتجلى في ما لا تزال تقوم به كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار بكل توفيق ٠

وفي هذا الاطار فان الاذاعة التونسية هي من اهم الاجهزة لخدمة النهضة الثقافية والادبية بهذه البلاد ٠ وان اهمية الاذاعة تتمثل في مدى تأثيرها ووصولها الى اغلبية المواطنين في بيوتهم او في اماكن اجتماعهم ٠

وبالاضافة الى دورها في التوعية الشاملة وفي تهذيب ذوق المواطن والعمل على تكوينه ورفع مستواه بوجه عام نرى ان الاذاعة قد خصصت حصصا لتنشئة الشبان على حب الادب وعلى الكتابة ، ولمساعدتهم على اكتشاف مواهبهم الكامنة وامكانياتهم الخفية ٠

وتندرج حصة هواة الادب الاذاعية في هذا السعي المتواصل للنهوض بالانسان في تونس ولاكتشاف المواهب ورعايتها وبناء الاسس لانطلاقة فكرية وثقافية مباركة ٠

وقد اشرف على تسيير هذه الحصة عند نشأتها أديب تونسي أصيل وهو المرحوم مصطفى خريف ، وخلفه في الاشراف عليها أديب أصيل ثان هو الاستاذ أحمد اللغماني ٠

وقد لقيت حصة هواة الادب منذ نشأتها تجاوبا مع الشباب المثقف وهواة الكتابة الشعرية والنثرية وتزايد هذا التجاوب مع مرور السنين حتى بلغ عدد الآثار الادبية التي وردت على الحصة فيما بين الملتقى الرابع في شهر أوت 1966 ، وهذا الملتقى الخامس ما يزيد على 1100 اثر بين قصائد وقصص ودراسات مختلفة ووقع اذاعة 312 اثر من بينها ، كانت ذات مستوى صالح للاذاعة ، وقد لقيت هذه الحصة عناية سامية من طرفكم يا فخامة الرئيس فقررتم رصد جوائز مالية شهرية لاحسن الآثار الواردة علينا ٠ وكانت جملة المراسلين الفائزين بهذه الجوائز خلال هذه السنة 23 مراسلا ٠ في حين احرز 36 مراسلا على جوائز متمثلة في كتب ٠

ومنذ خمس سنوات وقع التفكير فى اقامة هذه الملتقيات القومية السنوية حتى يتمكن المراسلون خلالها من الاتصال بالساهرين على الحصة اولا وحتى يقع ايضا بينهم تعارف مفيد وتبادل فى الآراء والافكار • وقد كانت عنايتكم بالشباب المفكر متواصلة فاجتمعتم ببعض الكتاب الشبان وخصوصا منهم الفتيات مرارا بمناسبة اذاعة آثار بعضهم ومناقشتها فكان تشجيعكم اكبر عامل على حث الهواة وخاصة الفتاة التونسية على الانطلاق فى ميدان الخلق الفنى والكتابة الادبية •

وها انكم تشرفون اليوم على هذا الملتقى الخامس لهواة الادب وتساهمون المساهمة الفعلية فى اعماله ومناقشاته فتغمرون النشء التونسى الصالح بعطفكم المعهود وتشرفون الادب والادباء مرة اخرى •

وانه لما ينعش حقا ان نرى تونس اليوم تسير بقيادتكم الموفقة فى سبيل استعادة الكرامة واسترجاع ذلك المجد مجد الاجداد الفاتحين فى ميادين العلوم والآداب والثقافة الحق •

نعم سيدى الرئيس ، ان ازدهار الادب اليوم بتونس ونهضة الانسان بها تعيد الى الاذهان ذلك الماضى المجيد وتلك المكاسب الهائلة التى لم يوفق اجدادنا فى المحافظة عليها ، كما تذكرنا رعايتكم للادب ورجاله موقف الدولة الاسلامية المشرف فى عصور ازدهارها ازاء رجال الفكر والادب وتكريمها لهم وعطفها عليهم •

وقد شكر لكم ادباء تونس وشعراؤها هذا العطف وهذه الرعاية ففاضت مشاعرهم شعرا اصيلا صادقا عبروا فيه عن المحبة وعن الولاء • واكبر شعراء تونس فيكم الزعيم المكافح وتغنوا بجهادكم باعتباركم انموذجا انسانيا فذا •

وانى واثق يا فخامة الرئيس ان الادب الذى خلد بطولات وامجاد عظماء المسلمين فى عهود ازدهار دولهم سواء كان ذلك فى الدولة الاموية او العباسية او فى ممالك الشام والاندلس سوف يخلد كذلك هذه المسيرة العظيمة التى تسيرها امتنا وهذا الجهاد البطولى الذى تقومون به على راس هذه الدولة والذى يبرز لنا فيكم المثقف الحق والانسان الحق •

هذا ولئن مدح الشعراء قديما خصال الامراء والحكام الفردية الشخصية من شجاعة وكرم وغير ذلك فان شعراء تونس اليوم الذين خلعوا عنهم الميوعة والتحذلق والتملق واصبحوا عنوانا للرجولة والصدق يتغنون فيكم بثورة الانسان من اجل الحياة الكريمة وبالمثل العليا والقيم التى تجسمونها وبالاصالة الانسانية التى يتوقون اليها فاذا بهم يتغنون بانفسهم وبأمتهم من خلال تغنيهم بكم الى حد ان الشاعر التونسى اصبح يقول :

ولا غرو والحالة هذه ان يزدهر الادب اليوم بتونس وان تقوم ريحه وان تنفق سوقه وان يكرم اهل الفكر ويلقوا التشجيع المادى والمعنوى من طرف الدولة •

واني اتقدم اليكم في الختام باسم رجال الفكر والادب عامة وهواة الادب خاصة باحر عبارات الشكر واسمى آيات الاجلال والتقدير راجيا من الله ان يبقيكم ذخرا لهذه الامة ومحافظا لآيات عزتها ومجدها •

وألقى فخامة الرئيس الكلمة التالية :

عندما افتتح هذه الندوة الخاصة بهواة الادب اشعر بفرح واعتزاز كبيرين لانني اكون في الحقيقة قد اوفيت العهد واديت الواجب معا • فقد كنت منذ تكونت حصة « هواة الادب » وانشئت كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار ابديت اهتماما كبيرا بالثقافة والادب والفن باعتبارها مجالات ـ لا يمكن الاستغناء عنها ـ مكملة لشخصية المواطن الذى نريد خلقه في هذه التربة الخصبة بعد ان مضت عليها قرون من التدهور والانحلال •

والناحية البارزة في معركة الخروج من التخلف هي تحسين المستوى الاقتصادى بدون ريب لان ما يؤلم الناس ويشعرهم بالحاجة الى خوض تلك المعركة هو حالة الفقر والخصاصة التي عليها جانب عظيم من الشعب ان لم اقل الجانب الاوفر • ومما يحز في نفوس التونسيين وخاصة المسؤولين منهم منظر الاكواخ والعرى والتسول التي كانت متفشية • وقد يتبادر الى ذهن كثير من الناس ان معالجة هذه الحالة رهينة برفع المستوى الاقتصادى للفرد وتوفير الخيرات ودفع عجلة الانتاج في الزراعة والصناعة وتحقيق الخدمات والتشريك فيها وتوفير القروض والبحث عن وسائل التثمير وما الى ذلك حتى تكاد النخبة المفكرة ان تقصر جهودها على هذه النواحي لا تتعداها اما لانها لا تعطى القيمة المطلوبة للمجالات الاخرى او لانها تجيء عندها في الدرجة الثانية من الاهمية • والقصد من المعركة التي نخوضها هو تلافي ما فاتنا في جميع الميادين ابان عصور الانحطاط لاننا نعتقد انه لو وقع الاقتصار على تحسين حالة الفرد المادية واعتبر ذلك هو الهدف الوحيد دون اعطاء النواحي الروحية والفنية والادبية ما تستحقه من عناية لكان هذا السلوك نكبة على الامة ولما سارت في طريق التقدم والرقى الحضارى الحق • فنحن لا نتصور الحضارة بدون تنمية كل الملكات في المواطن ، وكل تقدم في ميدان يؤثر على بقية الميادين •

اهتمـــام كبيـــر بالثقـــافـة

هذا ما جعلنى اولى الناحية الثقافية اهتماما كبيرا ٠ فالى جـانب ميـلى الى الادب والشعر والفن والجمال ـ شان كل من يجيد التفكير ويتمتـع بـذوق سليم ـ اريد ان الفت نظر الشعب الى ان النمو لا يتاتى ولا تتوفر اسبابه الا بالنهوض بالانسان فى كل نواحى الحياة ٠ وان النواحى النفسانية والروحية والفكرية هى وحدها التى تعصمه من النزول الى مستوى السوائم ومن الجنح والجرى وراء المتعة وكل ما من شانه ان يفسد الروحانيات ٠

علينا لا محالة ان لا نستنقص الجانب المادى فى الحياة اذ بدونه لا تتوفر لقمة العيش للانسان ولا يستطيع التفكير فى شىء ، ولكن الخـوف كل الخوف هو ان يقتصر التقدم والنهوض على الجانب المادى جريا وراء ارضاء الشهـوات ٠ وقد خلق الله الانسان مزيجا من المادة والروح ان طغت ناحية فيه على الاخرى كان الاختلال ، واذا تغلبت عليه الروحانية زهد فى الدنيا واستسلم للاقدار واصبح لا غرض له سوى ترقب الموت ٠ ومهما يكن فى ذلك من ارضاء للنفس فان المجتمع الذى تتغلب فيه هذه النزعة يكون مصيره الهوان والاستعمار ٠

لهذه الاسباب كلها اردت ان الفت نظركم الى المشكلة معبرا عن اهتمـامى بالميدان الثقافى وبحصة « هواة الأدب » خاصة التى تجمع بين افرادها ندوة اليوم وترمى الى تشجيع النشء وتوجيهه وفتح الافق امامه ليساهم فى الحركة الادبية ويبدى رايه فيها ، وهو ما جعلنى حريصا على الاستماع لها والعنـاية بها ٠ وقد تعلق غرضى زيادة على ذلك ان اشرف على ندوتكم مثلما فعلت فى الماضى لابرز اهمية الميدان الادبى عندى واحيى سنة حميدة تميزت بها الدول الاسلامية والعربية فى سالف عهدها عندما كان السلاطين والامراء يهتمـون بالغ الاهتمام بالادباء ان لم يكونوا هم انفسهم فى طليعتهم ٠

فـى الغلـــو خطـــر

والمعروف ان تلك الفترات كانت لامعـة فى تاريـخ الدول العـربية الا ان الملوك غالوا فى سلوكهم حتى وقعوا فى الخطـا الذى كنت احـذركم منه وهو التفرغ للادب والاهتمام به وحده والاكثار من مجالسه ولياليه انسه فنسـوا الميادين الحيوية الاخرى حتى انهارت الدولة ٠ وقد كان ذلك ايضا مصير ملوك الطوائف وامراء غرناطة وبنى حمدان فى الشام وهو ما يهيب بدولتنا الفتية ـ مع اكبارها للادب ـ ان تحتاط من الغلو وتعمل على تدعيم مناعتها بفرض الخدمة العسكرية الاجبارية وتعميم التعليم ورفع مستواه لان الانسياق الكلى مع الادب والفن والموسيقى ربما ينسينا واجبـاتنا ويهـدد كيـان دولتنـا ، والتاريخ حافل بالامثلة المؤدية لما أقول ٠

ان واجب المسؤول عن أمة ما هو ان يختار اوسط الامور ولا يترك الكفةتميل كل الميل ، وقد يتطلب هذا العمل جهدا شاقا خاصة فى عصرنا الذى يفرض على

كل دولة ان تثبت وجودها وشخصيتها فى جميع الميادين حتى تحمى نفسها من اى عدوان وخاصة العدوان المتمثل فيما يبث على امواج الاثير من الدعاية المسمومة التى تخرب الضمائر والافكار وتشتت الوحدة القومية بمفعول ما قد تثير من الاحقاد وتغذيه ٠

على ان بعض القوم يرمون من وراء ذلك العمل الى توفير اسباب الوحدة كما يتصورونها ، وحدة حول دولة ما او شخص ما ، حتى ولو ادى ذلك الى اثارة الفتن والقضاء على انظمة قائمة على امل احلال انظمة اخرى محلها تكون اكثر انصياعا واستسلاما ٠

وفى امكاننا تفادى كل ذلك بمواصلة الكفاح الجماعى الذى يؤلف بين القلوب ويقوى شخصية الامة ويزيد من اسباب مناعتها ٠ فالعناية بالادب والشعر والفن ، والرسم ، وفنون الحرب ومختلف العلوم والالتفات الى المجهود الاقتصادى لتعميم الخيرات ، كل ذلك يستهدف الرفع من مستوى الانسان حتى يكون فى مامن من كل عدوان ٠

العمل المشترك ضمان لوحدة الصفوف

وعندما نحاول طرق هذه المواضيع ونعمل فيها الراى بمساهمة كل افراد الامة ، فانما نقصد بهذه الطريقة دعم قوة الامة ، وبالتالى الزيادة فى التماسك بين افرادها ، لانه لا شىء يوحد الصفوف مثل الجهاد المشترك والعمل المشترك سواء فى الاستثمار والانتاج او فى غيرهما من الميادين ٠

النكبة فى تشتت الافكار

ان اسباب نكبتنا نتج عن تشتت الافكار وتزايد الاحقاد وتفرق الصفوف احيانا الى درجة التطاحن حتى لكان البعض يعمل خارجا عن نطاق الجماعة بنية تقديم عمل احسن ، فتكون النتيجة استفحال التصدع فى صفوف الامة لذلك كنت دائما ارى ان تدعيم صفوف الامة والنهوض بها عمل عظيم وبالغ الاهمية٠ لان اختيار الطريقة قد يصير نكسة فى حد ذاته اذا لم تلتف الامة حوله وتقيم الشورى فيما بينها لتتفق بشانه ٠ وغالبا ما ينقلب العمل نفسه الذى يستهدف رفع المستوى وبالا على الامة ، يزيد فى شتاتها اذا لم تجمع الامة على ان ذلك العمل يعتمد الطريقة المثلى الموصلة الى تحقيق رفع المستوى٠ وتعرفون ولا شك كيف تختلف الاراء من اجل معارك التحرير حتى ان المرء قد لا يدرى هل ان كسبا من المكاسب هو خطوة الى الامام ام خطوة الى الوراء وهل قبوله اياه يعد خيانة ام لا ٠ ومن ثم يصل به الامر الى نقطة يصعب معها التمييز فيسود التناحر وكل واحد يتعلل فى اتجاهه بحب الوطن ٠

لذلك كان من الخطر ان يدعى مسؤول انه بما لديه من معلومات وتجارب

يستطيع ادراك مصلحة الوطن قبل غيره او اكثر منه ٠ انه لا يستطيع ان يستبد برايه اذا كان مواطنوه غير مقتنعين به ٠ واذا فعل ، فهو يتسبب فى صراع مميت ياتى عليه ، عند ادنى عثرة يعثرها مثلما وقع فى العراق حيث مزق نورى السعيد اشلاء وكان مع ذلك راسخ الاعتقاد فى انه يخدم بلاده ٠ وربما ياتى يوم يعترفون فيه بما ادى من اعمال رغم انهم قتلوه وظنوا انهم انقذوا العراق ليستانف سيره الى الامام بعد ازالة حجر العثرة ٠ لكن ما الفائدة ؟ فنورى السعيد مات فى زحام الغوغائية وهوج العاطفة !

اذن يجب الا يستبد الانسان برايه ولو كان هو الصحيح لان العبرة بالنتائج ، واذا كان مصيبا ورفضته الامة باجمعها او الجانب الاوفر منها فكانما هذا الراى لم يكن ، شانه فى ذلك شان شخصية احدى روايات توفيق الحكيم حين تتساءل « من المختبل » ، فاذا اتفق الجميع انك المجنون وانت تصر فى موقفك فلا فائدة ترجى ٠

العبرة بالنتائج

وهنا تجى مسالة الاتصال المباشر والفائدة التى تجنى من تبادل الاراء واحتكاك الافكار وما ينجم عن ذلك من اصلاح وتغيير وتعديل فى جو حماسى ايجابى يشعر فيه الجميع من اعماقهم انهم عناصر عاملة محركة تساهم فى تخطيط المستقبل ٠ وفى نفس الوقت يزيد هذا التعاون لحمة وارتباطا بين افراد الامة ومختلف اجيالها ٠

هذا هو السبب الذى حملنى على تقديم هذا التوجيه وان كنتم لا تحتاجون الى بيان باعتباركم مساهمين فى المجهود الادبى ومن هواته ٠ وانا هاو مثلكم ارغب ان اشاركم فى كل المناقشات والملاحظات دون ان يحرجكم وجودى باعتبارى واحدا منكم ٠ لكننى اردت كرئيس دولة ان ابين لكم اهمية الادب والى اى حد يبدو ضروريا او ضارا ٠ ومثال ذلك تلمسونه فى حياة الامم ، فهناك حلول وسطى ومراعاة لكل نوازع البشر ليكون النهوض بالامة ذا فعالية ونتيجة ايجابية فيتحقق التقدم دون الغلو فى ناحية على حساب ناحية اخرى ٠

وقبل ان اعطى الكلمة الى السيد محمد مزالى احيطكم علما اننى سابقى معكم وساعطى رايى فيما يبدو لى ٠ وقد ذكرنى وجود السيد محمد بلحسين بايام المدرسة الصادقية عندما كنا نجتمع ونتناقش فى الادب وشؤونه وفى هذه الذكريات سرور وانتعاش وعودة الى عهد الشباب حيث كنا وما نزال مغرمين بالادب رغم ثقل المسؤوليات التى نتحملها اليوم ومشاكل الكفاح ورغم التقدم فى السن اذ بقينا على اخلاصنا للادب ولم نخلع روح الشباب من نفوسنا ٠

واتمنى لكم مزيدا من التوفيق والنجاح ولحصة « هواة الادب » الرواج والاقبال من الشباب فتيانا وفتيات ٠ كما اود بهذه المناسبة ان اشيد

بالمجهودات الجبارة التى بذلها السيد الشاذلى القليبى فى هذا الميدان لانه هو الذى اوجده حيث لم تكن ثمة وزارة تعنى به حتى اننى صرت حين اتجول فى الارياف النائية التى من المعتاد ان يرما فيها كل نشاط مع الليل وقد اقعدها الجهل وانهكها الاستعمار ، اجد روحا ادبية وفلكلورا شعبيا وحيوية شاملة . كما انى انوه بمجهودات السيد محمد مزالى فى نشر الثقافة بواسطة الاذاعة والتلفزة واشرافه على مجلة « الفكر » التى اعطت لتونس مكانة ادبية محترمة فى الخارج .

وكل هذا يدل يقينا على ان التربة التونسية طيبة وانه عندما نوجه الامة فى طريق الخير ونساعدها فى مسيرتها ، فانما نجنى ثمرة هذه الطريقة فيما نشاهده اليوم من تجاوب وحماس ، واطارات كفءة . واتمنى ان تعقب هذه الندوة ندوات اخرى ، وتدوم اجيالنا المتعاقبة على هذه التربة محافظة على التوازن بين الملكات التى خلقها المولى عز وجل فى البشر وان تعمل على تفتحها بطريقة متعادلة ، اذ فى التعادل سر النجاح والمناعة والنصر بحول الله .

• مذكرات طـه حسيـن :

صدرت مذكرات طه حسين أخيرا وانتخبت منها بعض المجلات صفحات تعد من الأدب الرفيع . ويسرنا أن ننقل للقراء الكرام عينة منها ؛ قال عميد الأدب العربى متحدثا عن دراساته فى السوربون :

« ولم تكن حياته العقلية اقل تعقيدا والتواء من حياته المادية ، فلم يكد يختلف الى دروس التاريخ والادب فى السوربون حتى احس انه لم يكن قد هيىء لها وانه لا يفهمها ولا يسيغها كما كان ينبغى ان تفهم وتساغ ، وان درسه الطويل فى الازهر وفى الجامعة لم يهيئه للانتفاع بهذه الدروس .

وكانت آماله عراضا فكان ينبغى ان يتخذ اليها اسبابها ، واول هذه الاسباب ان يعد نفسه لفهم الدروس التى تلقى فى الجامعة ، وسبيل هذا الاعداد ان يقرأ فى اقصر وقت ممكن ما كان التلاميذ الفرنسيون ينفقون الاعوام الطوال فى درسه بمدارسهم الثانوية . فليس له بد اذن من ان يكون تلميذا ثانويا اذا اوى الى بيته ، وطالبا جامعيا اذا اختلف الى دروس السوربون .

وما اسرع ما نظر فى برنامج المدارس الثانوية الفرنسية ، واستخلص منه ما يحتاج اليه وازمع ان يدرس منه التاريخ والجغرافيا والفلسفة وهذه الخلاصات الموجزة التى كانت تلقى الى التلاميذ عن الاداب الاجنبية الاوروبية قديمها وحديثها وقد اقبل على ذلك كله فى عزم لا يعرف الضعف وتصميم لا يعرف التردد ولا الفتور .

واستطاع فى وقت قصير ان يحصل من هذا كله ما حصله التلميذ الذى

كان يتقدم الى الشهادة الثانوية مطمئنا الى ان الممتحنين لن يردوه عن هذه الشهادة خزيان آسفا ٠

واستقامت له دروسه في السوربون فجعل يفهمها ويسيغها كما كان يفهمها ويسيغها زملاؤه الفرنسيون ٠ واختار لنفسه استاذا من اساتذة المدارس الثانوية يعلمه اللغة الفرنسية تعليما منظما فلم يكن يكفيه ان يفهم اذا سمع وان يفهم الناس عنه اذا تحدث اليهم وانما كان يجب عليه ان يحسن العلم بحقائق هذه اللغة ودقائقها وان يكتبها كتابة لا تنبو عمن يقرأها ٠

وكان يقدر ان الاساتذة فى السوربون سيكلفونه بعض الواجبات المكتوبة كما كانوا يكلفون غيره من الطلاب فلم يكن له بد اذن من ان يتهيأ لتحرير هذه الواجبات حين تطلب اليه على وجه لا يعرضه للسخرية والازدراء ٠ وما اكثر ما كان الاساتذة يسخرون من طلابهم اذا كتبوا لهم الواجبات فقصروا فى بعض نواحيها وكان الاساتذة يقرأون بعض هذه الواجبات ، يختارون من بينها للقراءة اشدها تعرضا للنقد ثم يأخذون فى هذا النقد على نحو لاذع مض يحرضون به الطلاب على ان يحسنوا العناية حين يكتبون وكانت سخريتهم بالمقصرين تضحك الزملاء وتخرجهم احيانا عن اطوارهم ٠

فكره الفتى ان يتعرض لبعض هذه السخرية ولكنه تعرض ذات يوم لشر منها ٠ كلفه استاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع عن الحياة الحزبية فى فرنسا بعد سقوط نابليون فاقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع فى الكتب التى نبه اليها الاستاذ وفكر فيه كما استطاع ايضا ٠

ثم كتب عنه ما اتيح له ان يكتب وقدمه الى الاستاذ فى اليوم الموعود ٠ وجاء يوم النقد فاستعرض الاستاذ ما قدم اليه من الواجبات ناقدا ساخرا متندرا موبخا بعض الطلاب احيانا ، حتى اذا ذكر اسم الفتى لم يزد على ان القى اليه واجبه معقبا بهذه الجملة التى لم ينسها قط : « سطحى لا يستحق النقد » وكان لهذه الكلمة وقع لاذع فى نفس الفتى امضه بقية يومه واقض مضجعه حين اقبل الليل ٠ واشعره بانه لم يتهيأ بعد كما ينبغى ليكون طالبا فى السوربون ، فألح فى درس الفرنسية وكلف نفسه فى هذا الدرس من الجهد الثقيل والعناء المتصل ما كاد يصرفه عن غيره من الدروس ٠ واعرض عن المشاركة فى كتابة الواجبات حتى تتم له اداة هذه الكتابة وهى اللغة الفرنسية » ٠

ولعل هذه العينة من مذكرات طه حسين تنبه الكثير من الشباب الصاعد الذى يمارس القلم الى العناء الذى يواجهه كل من يروم الخلق وتبين للهواة أن درب الأدب كؤود يقتضى قبل كل شىء المطالعة المتواصلة المفيدة والبحث الذى لا ينى ٠

◆ **وفاة الأديب أحمد خير الدين :**

توفي يوم 26 جويلية الأديب أحمد خير الدين وهو الشاعر والكاتب المسرحي ومؤلف الأغنية المعروف · وقد فجعت أسرة الأدب في أحد أعضائها المشهورين بالانتاج الغزير والفن الرفيع سواء بالعربية أو اللغة العامية التونسية ·

◆ صدر عن مكتبة الشريف المرتضى بالعراق الامام الشاهرودي للسيد محمود الحسيني وحياة الشريف المرتضى للسيد أحمد الحسيني ·

◆ قام الأديب خليفة التليسي بترجمة مسرحية الفنان والتمثال للكاتب الايطالي لويجي بيراندللو · وقد أصدرتها اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب في سلسلة الكتاب الليبي ·

◆ توقفت مجلة أفكار الأردنية بسبب الظروف التي يجتازها الأردن نتيجة الحرب الأخيرة في الشرق الأوسط ·

◆ تقرر إلغاء مهرجان الشعر العربي السادس ·

◆ استأنفت مجلة شعر صدورها عن دار النهار ببيروت ·

◆ **تمويل النشر في آسيا :**

خول البنك الدولي لشؤون التنمية والتطوير ، فروعه الوطنية في آسيا صلاحية منح قروض طويلة الاجل وزهيدة الفائدة لتمويل الجهود التي تتوخى توسيع مشروعات النشر في المنطقة ·

ولقد جاء هذا القرار على اثر التوصيات التي أدلت بها جماعة من المتخصصين في شؤون « الكتاب » كانت قد اجتمعت في العام الماضي بمدينة طوكيو تحت رعاية اليونسكو · وقد شرعت المصارف في ايران والهند وباكستان في الترحيب بطلبات القروض في هذا الشأن ·

(أنباء اليونسكو)

◆ صدر عن الدار التونسية للنشر كتاب « ثورة بن غذاهم 1864 » عن الكاتبة ب· سلامة وهو باللغة الفرنسية وقد سبق ان صدرت ترجمته الى العربية منذ بعض أشهر كما أعلنا على ذلك في أحد أعدادنا السابقة ·